معالم

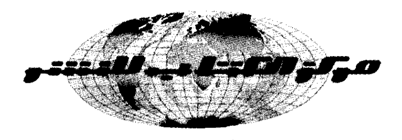
لفهم القرآن الكريم

الدكتور
عمر يوسف حمزة
الأستاذ بكلية أصول الدين - جامعة أم درمان الإسلامية
وكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - قسم التفسير والحديث
جامعة قطر

مركز الكتاب للنشر

الطبعة الأولى

١٩٩٨



مصر الجديدة : ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
ت : ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس : ٢٩٠٦٢٥٠
مدينة نصر : ٧١ شارع ابن النفيس - المنطقة السادسة - ت : ٢٧٢٣٣٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمه

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، وجعله إلى كل خير منهجاً، ومن كل شر مخرجاً. أنزله كتاباً معجزاً بيانه، شاملاً تبيانه، ساطعاً برهانه، لا يرقى إلى شأوه كلام البشر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وسع كل شئ علما، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله.

جمعت رسالته ما تفرق فى الرسالات، وخلّد الله تعالى معجزته دون سائر المعجزات، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد دعت آيات من كتاب الله جل شأنه إلى تدبر معانى القرآن الكريم وفهمه، فمن ذلك قول الحق جل ذكره:

﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا** ﴾ (1).

وقوله تعالى فى سورة محمد: ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾(2)

وقوله تعالى فى سورة ص: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ (3).

وأمرنا الله تعالى بتدبر القرآن الكريم لأنه منبع الخير كله، ومطلع الهداية التى أشرق نورها على قلوب الناس فبدد منها الظلمات، واستأصل منها الضلالات. فمن تمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها. فهو كلام الله رب العالمين :

---

(1) سورة النساء الآية: ٨٢.

(2) سورة محمد الآية: ٢٤.

(3) سورة ص الاية : ٢٩.

﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (١) .

ونجد من خلال تلاوتنا له ما يدلنا على عظمة محتواه، وعلى القصد من إنزاله فالله تعالى يقول: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٢) .

ويقول جل شأنه: ﴿الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (٣) .

ويقول جل شأنه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (٤) .

ويقول تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ (٥) .

ويقول: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (٦) .

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧) .

ولقد وصف الرسول الكريم ﷺ القرآن العظيم وصف العارف به، كيف لا ؟. وهو الذى أنزل عليه ليبينه للناس، يقول المولى جل شأنه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (٨) .

ولعل أجمع حديث لصفات القرآن الكريم ما رواه الإمام أحمد والترمذى عن الإمام على بن أبى طالب(كرم الله وجهه) أن النبى ﷺ قال: «ستكون من بعدى فتن كقطع الليل المظلم، قيل يا رسول الله وما المخرج؟ قال: كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو

---

(١) سورة فصلت الآية: ٤٢ .
(٢) سورة البقرة الآية: ٢ .
(٣) سورة إبراهيم الآية: ١ .
(٤) سورة الإسراء الآية: ٩ .
(٥) سورة الزمر الآية: ٢٣ .
(٦) سورة ص الآية: ٢٩ .
(٧) سورة يونس الآية: ٥٧ .
(٨) سورة النحل الآية: ٤٤ .

الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، ونوره المبين والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق من كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (١). من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم»(٢).

قال الحافظ ابن كثير: لهذا الحديث شاهد عن عبد الله بن مسعود جاء فيه: (وهو الشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يعوج فيقوّم، ولا يزيغ فيستعتب) (٣).

ومهما قيل فى إسناد الحديث فإن البريق الذى يلمع من عباراته دليل على تألقه من مشكاة النبوة. إن هذه الإحاطة الدقيقة بصفات القرآن لا تكون إلا ممن أنزل عليه، وقصارى ما يمكن أن يصل إليه فهمنا من هذا الوصف الجامع للقرآن الكريم احتواء القرآن على كل ما يحتاج إليه الإنسان من عبر يستفيدها ممن مضى قبله. وخبر يتطلع إليه من وراء حجاب المستقبل الغيبى، وحكم يقيم عليه علاقته ببنى جنسه، وإن كل من جانبه من جبار إعراضا عنه لابد له من قاصمة، وأنه فصل ليس بالهزل وكيف يكون هزلاً أو يحتوى عليه وهو

---

(١) سورة الجن الآية: ١.

(٢) رواه الترمذى وقال: حديث غريب (فضائل القرآن الباب ١٤) وتعقبه ابن كثير فى :(فضائل القرآن ص١١) فقال: لم ينفرد بروايته حمزة بن حبيب الزيات بل قد رواه محمد بن إسحاق بن كعب القرظى عن الحارث الأعور (ثم قال) وهو كلام حسن صحيح على أنه روى له شاهد عن عبد الله بن مسعود..

(٣) رواه الدارمى وقال أبو عبيدة القاسم بن سلام فى كتاب فضائل القرآن (وهذا غريب من هذا الوجه) وتعقبه ابن كثير ولكن له شاهد من وجه آخر (فضائل القرآن ص١٢)..

كلام رب العالمين؟ وأنه حبل الله الذى لا ينقطع بمن تمسك به، ونوره الذى لا يضل من استبصر به[1].

والحديث يتضمن التحذير من سوء العاقبة لأولئك الذين يضربون بشريعة القرآن عرض الحائط، متمسكين بقوانين صاغتها عقول البشر القاصرة، وأنظمة معوجة لا صلة لها بالفطرة الإنسانية، وهؤلاء يحتويهم وعيد الحق فى قوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[2].

ولا سبيل إلى تحقيق القرآن الكريم فى حياتنا وتطبيقه التطبيق الكامل إلا بعد معرفة القراءة الصحيحة له، والفهم السليم لأحكامه وآدابه والكشف عن أسراره واستخراج كنوزه، وهذا ليس بالأمر الذى يكون فى متناول كل مسلم يريد أن يتمسك بكتاب الله تعالى.

ولقد رأيت أن أشارك بهذا البحث بعنوان «معالم لفهم القرآن الكريم» رغبة فى تعميم الانتفاع به ومؤازرة لجهود علمائنا الأجلاء الذين كتبوا فى هذا الميدان الفسيح، وكانت تلك الكتابات متفرقة من خلال مصنفاتهم التى اشتملت على إشارات موجزة لكيفية التدبر للقرآن الكريم، فأردت أن أجمع تلك العبارات المتفرقة فى بطون الكتب، وأشرح ما فيها من غموض، وأضيف إليها ما تحتاج إليه فى حسن ترتيب وتهذيب، حتى يستفيد منها من هو فى حاجة إليها، والله أسأل أن يوفقنا للرشاد وأن يجنبنا الخطأ بمنه وكرمه إنه ولى ذلك والقادر عليه وحده.

---

(١) راجع: جواهر التفسير، أنوار من بيان التنزيل، للشيخ أحمد بن حمد الخليلى (ج١ص٤،٥)
(٢) سورة طه الآية: ١٢٤.

الباب الأول
ويحتوى على أربعة مباحث:

١ - المقصود بكلمتى (معالم - فهم).

٢ - موانع الاستفادة من القرآن الكريم.

٣ - مؤيدات الاستفادة من القرآن الكريم.

٤ - نماذج من تدبر السلف وتلاوتهم للقرآن الكريم.

المبحث الأول
المقصود بكلمتى (معالم - فهم)

وقبل أن نسترسل فى البحث ينبغى أن نبين المقصود بهاتين الكلمتين حتى لا يختلط الأمـر على قارئه، لأن كـلا اللفظين يستعـملان بمعنى عـام يشمل المعنى الذى تعنيه الحضارة المادية وتزيد عليه.

ولهذا كان من الضرورى أن نبين المقصود بكلمتى (معالم-فهم) :

فالمعالم:

جمع مـعلم- قال فى اللسان: (والمعلم: مـا جعل علامـة وعلماً للطرق والحدود مثل أعلام الحرم ومعالمه المضروبة عليه) (١).

ومعنى **الفهم** من الناحية اللغوية:

(فـهم) الشئ بالكسـر (فهـماً) (وفـهامـة) أى علمـه. وفلان (فـهم). و(استفهمه) الشئ (فأفهمه) (وفهمه تفـهيماً). و(تفهم) الكلام فهمه شيئاً بعد شئ (٢).

هذا مدلول الكلمتين (معالم-فهم) من الناحـية اللغوية كما جاء ذلك فى معاجم اللغة.

وأعنى بالمعالم فى هذا البحث الأمور الأتية:

أولاً: قواعد الاستفادة من القرآن الكريم.

ثانياً: موانعهـــا.

ثالثاً: مؤيداتهـــا.

---

(١) راجع: لسان العرب لابن منظور (ج١٢) ص تصوير دار صادر للطباعة، بيروت.
وراجع: الصحاح للجوهرى، طبعه صادر ودار بيروت (ج ٧/ ٣٠٧) ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس (ت ٣٩٥هـ) ٢/ ٣٨١).

(٢) راجع: مختار الصحاح للرازى (ص٥١٣) والمصباح المنير (ص ١٨٤) ومقاييس اللغة لابن فارس.

رابعاً: نماذج من تدبر السلف وتلاوتهم للقرآن الكريم.

خامساً: الباب الثانى:

الطريق إلى تحقيق القرآن فى حياتنا.

وتمثل هذه الأمور الخمسة العناصر التى يتكون منها هذا البحث، وسوف أتناول كل عنصر منها بالتحليل والدراسة، لاستخلص النتائج التى تعيننا على فهم القرآن الكريم وتطبيقه فى حياتنا.

أما بالنسبة للأمر الأول: قواعد الاستفادة من القرآن الكريم، فيتضح لنا هذا من خلال تتبعنا لآيات الكتاب العزيز، والوقوف على أسرارها، والكشف عن غوامضها، والغوص على استخراج حكمها وآدابها.

وذلك لأن خطاب القرآن الكريم عام لجميع الجنس البشرى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (٢).

وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (٣).

ولكن كما أن قطع الأرض تختلف فيما بينها فى مراتب استعداداتها وصلاحياتها، ودرجة حاجتها إلى الماء وشدة انتظارها له. ثم درجة الاستفادة منه والتمتع به، وكما أن الغذاء مهما كان طيباً سائغاً يختلف تأثيره من معدة إلى معدة أخرى، كذلك القرآن - رغم كونه يخاطب الجميع وينزل على الجميع- تختلف صلاحيات الناس فى قبوله والاستفادة منه والاستمتاع به، فالشئ الواحد يتفاوت أثره وتختلف نتائجه بسبب اختلاف الأوعية الإنسانية، والاستعدادات البشرية.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢١.

(٢) سورة النساء الآية: ١.

(٣) سورة الحج الآية: ١.

وقد ذكر الله تعالى هذا الاختلاف للآثار والنتائج فى القرآن الكريم، وجمع بين نتيجتيه المتعارضتين فى مكان واحد فقال:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾[1].

وبيان الآية الكريمة ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء﴾(من) هاهنا لبيان الجنس فجميع القرآن شفاء. وفى هذا الشفاء ثلاثة أقوال:

أحدهما: شفاء من الضلال لما فيه من الهدى.

والثانى: شفاء من السقم، لما فيه من البركة.

والثالث: شفاء من البيان للفرائض والأحكام.

وفى (الرحمة) قولان: أحدهما: النعمة، والثانى: سبب الرحمة[2] قوله تعالى: ﴿ولا يزيد الظالمين﴾ يعنى المشركين ﴿إلا خسارا﴾ لأنهم يكفرون به ولا ينتفعون بمواعظه، فيزيد خسرانهم[3].

ومثل آية الإسراء المتقدمة قول البارى جل شأنه: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾[6].

يقول بعض المفسرين فى بيان قوله تعالى:[7] ﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٨٣. (٢) انظر: زاد المسير فى علم التفسير للعلامة ابن الجوزى (ج٥ص٧٩).
(٣) المصدر السابق. (٤) سورة فصلت الآية: ٤٤. (٥) سورة التوبة الآية: ١٢٤-١٢٥
(٦) سورة البقرة الآية: ٢٦. (٧) انظر تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (ج١ص٣٦٥).

أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا . . .﴾ إلى آخر الآية .

فإن علم المؤمنين أنه الحق من ربهم هدى، وقول الكافرين ماذا أراد الله- الخ- ضلال، والأظهر أن لا يكون قوله﴿يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً﴾ جواباً للاستفهام فى قول الذين كفروا ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ لأن ذلك ليس استفهاماً حقيقياً، ويجوز أن يجعل جواباً عن استفهامهم تخريجاً للكلام على الأسلوب الحكيم، بحمل استفهامهم على ظاهره تنبياً على أن اللائق بهم أن يسألوا عن حكمة ما أراد الله بتلك الأمثال فيكون قوله: ﴿يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً﴾ جواباً لهم ورداً عليهم وبياناً لحال المؤمنين.

وكون كلا الفريقين من المضلل والمهدى كثيراً فى نفسه لا ينافى نحو قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[1] لأن قوة الشكر التى اقتضتها صيغة المبالغة أخص بالاهتداء، اهـ.

وبين الله جل شأنه فى بعض الآيات تأثيرها على المؤمنين وفى بعضها الآخر تأثيرها المعاكس على الكفار، وإليك بعض الأمثلة من القرآن الكريم:

أولاً: تأثير القرآن على المؤمنين:

يوضحه مثل قول الحق جل شأنه:

﴿الم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[2].

والهدى على التحقيق: هو الدلالة التى من شأنها الإيصال إلى البغية وهذا هو الظاهر فى معناه لأن الأصل عدم الترادف.

فلا يكون هدى مرادفاً لذل، ولأن المفهوم من الهدى الدلالة الكاملة. وهذا موافق للمعنى المنقول إليه الهدى فى العرف الشرعى.

الهدى الشرعى: هو الإرشاد. فالمتقون يهتدون بهديه، والمعاندون لا

---

(١) سورة سبأ الآية: ١٣.

(٢) سورة البقرة الآيات : ١ - ٣.

يهتـدون لأنـهم لا يتـدبرون.[1] والهـداية أنواع ولا أريد أن أخـوض فى تفصيـلاتها الكثيرة التى بينّها علمـاؤنا الأجلاء- رحمهم الله تعالى جميعاً- ومن أرادها فليطلبـها فى مظانـها- [2] وخاصـة فى بيان قـول الحق تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [3].

والتقوى الشرعـية هى امتثال الأوامر واجتناب المنهـيات من الكبائر وعدم الاسترسال على الصـغائر ظاهراً وباطناً، أى اتقاء ما جعل الله الاقتـحام فيه موجباً غضبه وعقابه، فالكبائر كلها متوعد فاعلها بالعقاب دون اللمم.

والمراد من الهدى ومن المتـقين فى الآية معناهما اللغوى فـالمراد أن القرآن من شأنه الإيصـال إلى المطالب الخيـرية وأن المستعـدين للوصول به اليـها هم المتقون أى هم الذين تجـردوا من المكابرة ونزهوا أنفسهم عن حضـيض التقليد للمـضلين وخشـوا العاقـبة وصـانوا أنفسـهم من خطر غـضب الله هذا هو الظاهر، والمراد بالمتقين المؤمنين الـذين آمنوا بالله وبمحمد وتلقوا القـرآن بقوة وعزم على العمل به كـما ستكشف عنهم الأوصاف الآتيـة فى قوله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب- إلى قوله- من قبلك﴾ [4].

ومن الآيات التى تدل على تـأثير القـرآن على المؤمنين قـول الحق تبـارك وتعـالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [5].

---

(١) راجع تفسير التحرير والتنوير (ج ١ ص ٢٢٥).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ج١ ص١٤٦) والبحر المحيط لأبى حيان (ج١ ص٢٦) والألوسى (ج١ ص٩٤) وزاد المسير لابن الجوزى (ج١ ص١٥) والفخر الرازى (ج١ ص٢٠٣) وفتح القدير للشوكانى (ج١ ص٢٣) والتحرير والتنوير (١/١٨٦) وروائع البيان تفسير آيات الأحكام (ج١ ص٢٨) وتفسير المنار (ج١ ص٦٢، ٦٣، ٦٤).

(٣) سورة الفاتحة الآية: ٤.

(٤) انظر: التحرير والتنوير (ج١ ص٢٢٦).

(٥) سورة الأنفال الآية: ٢.

وقوله تعالى:

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (١).

والمراد بقوله تعالى: ﴿الله نزل الحديث﴾ يعنى القرآن؛ وقوله تعالى: ﴿كتاباً متشابهاً﴾ فيه قولان.

أحدهما: أن بعضه يشبه بعضاً فى الأى والحروف، فالأية تشبه الآية، والكلمة تشبه الكلمة، والحرف يشبه الحرف.

والثانى: أن بعضه يصدق بعضاً، فليس فيه اختلاف ولا تناقض. وإنما قيل له: ﴿مثانى﴾ لأنه كررت فيه القصص والفرائض والحدود والثواب والعقاب (٢).

قوله تعالى: ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾ أى: تأخذهم قشعريرة، وهو تغير يحدث فى جلد الإنسان من الوجل.

وروى العباس بن عبد المطلب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها»(٣).

وفى معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها: تقشعر من وعيده، وتلين عند وعده، قال السدى. والثانى: تقشعر من الخوف وتلين من الرجاء.

---

(١) سورة الزمر الآية: ٢٣.

(٢) راجع : زاد المسير (ج٧ ص١٥٧).

(٣) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (ج٥ص٣٢٦) من رواية الحكيم الترمذى فى(نوادر الأصول) عن العباس ابن عبد المطلب رضى الله عنه، وقد ذكره فى (الجامع الصغير) أيضاً، من رواية سمويه فى(فوائده) والطبرانى فى (الكبير) قال الحافظ المناوى فى(فيض القدير شرح الجامع الصغير): وكذا رواه البزاز فى (الشعب) عن العباس بن عبد المطلب، قال المنذرى والعراقى: سنده ضعيف، قال: وبينه الهيثمى فقال: فيه أم كلثوم بنت العباس رضى الله عنهما، لم أعرفها، وبقية رجاله ثقات.

والثالث: تقشعر الجلود لاعظامه، وتلين عند تلاوته، ذكرهما الماوردى[1].

ثانياً: تأثير القرآن الكريم على الكفار:

من الآيات الكريمة التى تبين تأثير القرآن على الكفار قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[2].

والأيات هى القرآن لا غيره من المعجزات لقوله: ﴿وإذا تتلى عليهم﴾.

والمنكر: إما الشئ الذى تنكره الأنظار والنفوس فيكون هنا اسماً، أى دلائل كراهيتهم وغضبهم وعزمهم على السوء. وإما مصدر ميمى بمعنى الإنكار كالمكرم بمعنى الإكرام، والمحملان آيلان إلى معنى أنهم يلوح على وجوههم الغيظ والغضب عندما يتلى عليهم القرآن ويدعون إلى الإيمان. وهذا كناية عن امتلاء نفوسهم من الإنكار والغيظ حتى تجاوز أثره بواطنهم فظهر على وجوههم: كما فى قوله تعالى: ﴿**تعرف فى وجوههم نضرة النعيم**﴾[3]. كناية عن وفرة نعيمهم وفرط مسرتهم به، ولأجل هذه الكناية عدل عن التصريح بنحو: اشتد غيظهم أو يكادون يتميزون غيظاً، ونحو قوله: ﴿**قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ**﴾[4] والخطاب فى قوله: (تعرف) لكل من يصلح للخطاب بدليل قوله: ﴿بالذين يتلون آياتنا﴾.

والسطو: البطش، أى يقاربون أو يصولوا على الذين يتلون عليهم الآيات من شدة الغضب والغيظ من سماع القرآن[5].

ومن الآيات التى تدل على تأثير القرآن على الكفار قوله جل شأنه:

---

(١) انظر: زاد المسير (ج٧ ص١٧٦).
(٢) سورة الحج الآية: ٧٢.
(٣) سورة المطففين الآية: ٢٤
(٤) سورة النحل الآية: ٢٢.
(٥) راجع: تفسير التحرير والتنوير، (ج٧ ص٣٣٤، ٣٣٥)

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (١).

وفى معنى قوله تعالى ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين . .﴾ إلخ ثلاثة أقوال: أحدها: انقبضت عن التوحيد، قاله ابن عباس، ومجاهد (٢).

والثانى: استكبرت، قاله قتادة.

والثالث: نفرت، قاله أبو عبيدة، والزجاج (٣).

قوله تعالى :﴿وإذا ذكر الذين من دونه﴾ يعنى الأصنام ﴿إذا هم يستبشرون﴾ يفرحون (٤).

ومن الآيات التى تدل على تأثير القرآن على الكفار قوله جل شأنه:

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ (٥).

قال ابن العباس: كانت إذا إنزلت سورة فيها عيب المنافقون وخطبهم رسول الله ﷺ، وعرض بهم فى خطبته، شق ذلك عليهم. ونظر بعضهم إلى بعض يريدون الهرب. يقولون: ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ من المؤمنين إن قمتم؟ فإن لم يرهم أحد، ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ عن المكان، وجائز عن العمل بما يسمعون.

وقال الحسن: ثم انصرفوا على عزم التكذيب بمحمد ﷺ وبما جاء به(٦).

ونظر بعضهم إلى بعض عند نزول السورة يدل على أنهم كانوا حينئذ فى مجلس النبى ﷺ، لأن نظر بعضهم إلى بعض حاصلاً وقت نزول السورة ويدل ذلك أيضاً على قوله: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ أى عن ذلك المجلس، ويدل

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٥.

(٢) انظر: زاد المسير فى علم التفسير، (ج٧ ص ١٨٧).

(٣) انظر القولين فى زاد المسير (ج٧ ص١٨٧).

(٤) راجع المصدر السابق نفسه.

(٥) سورة التوبة الآية: ١٢٧.

(٦) انظر: زاد المسير (ج٣ ص٠ ٥٢).

أيضاً على أن السورة مشتملة على كشف أسرارهم وفضح لمكرهم، لأن نظر بعضهم إلى بعض هو نظر تعجب واستفهام. وقد قال الله تعالى فى الآية السابقة: ﴿ **يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ** ﴾[1] ويدل أيضاً على أنهم كاتمون تعجبهم من ظهور خشية الاعتراف بما نسب إليهم ولذلك اجتزوا بالتناظر دون الكلام، فالنظر هنا نظر دال على ما فى ضمير الناظر من التعجب والاستفهام [2].

قوله تعالى ﴿**صرف الله قلوبهم**﴾ قال ابن عباس: عن الإيمان. وقال الزجاج: مجازاة على فعلهم [3].

هذه بعض الأمثلة على تأثير القرآن على المؤمنين والكافرين.

وخلاصة القول

فإن القرآن الكريم لم يكتف بعرض هذا التأثير ذى الوجهين على الكفار والمؤمنين، فيزداد المؤمنون إيمانا، ويستفيدون من هذا الكتاب ويزدادون هدى، ويزداد الكفار بعدا وضلالاً وعناداً، بل ذكر صفات وعقائد وأعمال إزاء ذكر المؤمنين والكفار، يبدو أن هذه الصفات والأعمال المختلفة المتوازية هى المؤثرة فى صدور النتائج المعارضة والآثار المتعاكسة، ويمكننا فى ضوء هذه الصفات التى ينوه بها القرآن مع الفريقين أن نشرح قواعد الاستفادة من القرآن، وموانع الاستفادة منه، وأن نعرف ما هى الأخلاق والأعمال، وما هى العقلية والتربية النفسية التى تنسجم مع القرآن الكريم وتلائمه وتساعد فى فهمه والتمتع به، وما هى العقلية والسيرة المنحرفة التى لا تليق بالقرآن، وتجعل بين القرآن ومخاطبه حجاباً كثيفاً وتضاد نتائجه الثورية الإصلاحية المرجوة [4].

وهذا ما نفصله فى الصفحات التالية.

---

(١) سورة التوبة الآية: ٦٤. (٢) انظر: تفسير التحرير (ج١٠ ص٦٨، ٦٩).

(٣) انظر: زاد المسير (ج٣ ص ٥٢٠).

(٤) انظر: المدخل إلى الدراسات القرآنية، أبو الحسن الندوى، (ص١٢٧).

المبحث الثاني
موانع الاستفادة من القرآن الكريم

لقد ذكر القرآن الكريم موانع الهداية والاستفادة من القرآن الكريم مع ذكر شقاء الكفار، وحرمانهم، مما يدل على أن هذه الصفات والأخلاق والمعتقدات التي يتسم بها الكفار ويصرح بها القرآن الكريم والتي تقاوم ثورة القرآن الروحية أو العقدية وتأثيره الإصلاحي العظيم، إذا تحققت في المسلمين فإنها تقع حاجزاً بينهم وبين القرآن، وتمنعهم من الاستفادة به[1].

ونذكر هذه الصفات التي نص عليها القرآن الكريم وهي الكبر والمجادلة والكفر بالآخرة وعبادة المادة.

أولاً: الكبر:[2]

إن من أقوى أسباب الحرمان، كما جاء في آيات الكتاب العزيز والتعاليم النبوية ونتائجها وبركاتها، هو الكبر المتنفخ، والعزة الكاذبة، والاعتداد الأجوف بالنفس، وما يشبه ذلك من أمراض نفسية جاهلية، فتارة يكون هذا الاستكبار مانعاً من قبول الحق والإذعان له مباشرة، إذ أن ذلك يدعو صاحبه إلى التخلي عن جاهه وسلطانه، وتقاليده الجاهلية وطقوسه، والحرمان من كثير من الفوائد المادية الظاهرة، ويدعوه إلى ترك الحياة المطلقة من كل قيد، حياة الهوى والحرية الكاملة، والتقيد بالحياة الشرعية.

والإلتزام بالحدود والأحكام والضوابط [3].

وتارة أخرى يواجه كثير من الناس عنتا ومشقة في تغيرهم وانقلاب

---

(١) راجع: المدخل إلى الدراسات القرآنية (ص ١٢٩).

(٢) الكبر: العظمة والتجبر والإثم الكبير، وفي التنزيل: ﴿ **والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ سورة النور آية ١١. وانظر المعجم الوسيط (ج٢ ص٧٧٣).

(٣) راجع: المدخل إلى الدراسات القرآنية (ص١٢٩).

سيرتهم ويحول دونهم الاستكبار الذى يحملهم على الجحود والإنكار وهؤلاء الذين تصفهم الآيات التالية:

قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١).

والمراد بالآيات : قولان:

أحدهما: أنها آيات الكتب المتلوة ثم فى معنى الكلام ثلاثة أقوال، أحدها: أمنعهم من فهمها. والثانى: أمنعهم من الإيمان بها. والثالث: أصرفهم عن الاعتراض عليها بالأبطال(٢).

والراجح القول الأول، والثانى مرجوح، ولا دليل على القول الثالث الذى يؤيد ما ذهب إليه النظام من أن الله تعالى قد صرف بلغاء العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم على تلك المعارضة، أو أنه صرفهم وكان ذلك مقدوراً لهم(٣).

وقد تكاثرت أدلة العلماء فى الرد على القول بالصرفة نذكر منها دليلين ومن أراد المزيد فليراجع ذلك فى مظآنه(٤):

١- يدل على فساد القول بالصرفة قول الله تعالى ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾(٥).

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٤٦.

(٢) انظر: زاد المسير (ج٣ ص٢٦٠).

(٣) راجع: علوم القرآن (ص٢٣١ - ٢٣٢) ، د. عدنان محمد زرزور : المكتب الإسلامى الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م.

(٤) راجع: انظر مناهل العرفان فى علوم القرآن (ج٢ص٣١٠) وما بعدها، والنبأ العظيم د. محمد عبد الله دراز (ص٨٦) وما بعدها، ودراسات حول القرآن الكريم (ص١٠٠) وما بعدها، والإتقان فى علوم القرآن وضحى الإسلام لأحمد أمين (٣/ ٢٥).

(٥) سورة الإسراء الآية: ٨٨.

فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره.

٢- إن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكون معجزاً وليس فيه صفة إعجاز، بل المعجز هو الله تعالى حين سلبهم القدرة على الإتيان بمثله(١).

القول الثانى:

أن المراد من الآيات فى قوله تعالى: ﴿**سأصرف عن آياتى..إلخ**﴾ أنها آيات المخلوقات كالسماء والأرض والشمس والقمر وغيرها، فيكون المعنى: أصرفهم عن التفكر والاعتبار بما خلقت، وفى معنى يتكبرون قولان: أحدهما، يتكبرون عن الإيمان واتباع الرسول.

والثانى: يحقرون الناس ويرون لهم الفضل عليهم(٢).

قال الزركشى فى البرهان:

«أعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معانى الوحى ولا يظهر له أسراره وفى قلبه بدعة أو كبر أو هوى أو حب الدنيا أو وهو مصر على ذنب أو غير متحقق بالإيمان أو ضعيف التحقيق أو يعتمد على قول مفسر ليس عنده علم، أو راجع إلى معقوله، وهذه كلها حجب وموانع بعضها أكد من بعض»(٣).

يقول السيوطى وفى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾(٤).

---

(١) انظر: مزيداً من الأدلة على بطلان القول بالصدفة فى دراسات حول القرآن (ص١٠٠ ، ١٠١).

(٢) راجع: زاد المسير (ج٣ ص٢٦٠).

(٣) نقلا عن السيوطى فى الإتقان (ج٢ ص٥١٣).

(٤) سورة الأعراف الآية: ١٤٦.

قال سفيان بن عيينة: يقول انزع عنهم فهم القرآن. أخرجه ابن أبى حاتم(١).

ومن الآيات التى تدل على أن الكبر يمنع فهم القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٢).

جاءت هاتان الآيتان عقب ذكر المؤمنين الموقنين العاقلين المنتفعين بدلالة آيات الله وما يفيده مفهوم تلك الصفات التى أجريت عليهم من تعريض بالذين لم ينتفعوا بها، بصريح ذكر أولئك الذين لم يؤمنوا ولم يعقلوها كما وصف لذلك قوله: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾(٣).

وافتتح ذكره بالويل له تعجيلاً لأنذاره وتهديده قبل ذكر حاله و(ويل له) كلمة دعاء، وأصل الويل: الشر وحلوله.

و(الأفاك) القوى الإفك، أى الكذب.

والأثيم مبالغة أو صفة مشبهة وهو يدل على المبالغ فى اقتراف الآثام، أى الخطايا(٤).

وجعلت حالته أنه يسمع آيات الله ثم يصر مستكبراً، لأن تلك الحالة وهى حالة تكرار سماعه آيات الله وتكرار إصراره مستكبراً عنها تحمله على تكرار تكذيب الرسول ﷺ وتكرير الإثم، فلاجرم أن يكون أفاكاً أثيماً بله ما تلبس به من الشرك الذى كله كذب وإثم(٥).

---

(١) انظر: الإتقان (ج٢ ص٥١٣).
(٢) سورة الجاثية الآية: ٧، ٨.
(٣) سورة الجاثية الآية: ٦.
(٤) راجع التحرير والتنوير (ج٢٥ ص٣٣١).
(٥) المصدر السابق نفسه.

ومما يدل على أن الكبر يحول دون فهم القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾[١].

فلقد أدبر هذا الكافر عن الإيمان وتكبر حين دعى إليه وقال فى القرآن ما هذا ﴿**إلا سحر يؤثر**﴾ أى يروى عن السحرة ﴿**إن هذا إلا قول البشر**﴾ أى من كلام الإنس، وليس من كلام الله تعالى فقال الله تعالى: ﴿**سأصليه سقر**﴾[٢]. أى سأدخله النار[٣].

وصدق الرسول الكريم ﷺ إذ يقول: «ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل[٤] جواظ[٥] مستكبر»[٦].

وتارة يمنعهم الاستكبار والجحود بما يرون من حالة الأنبياء المادية الظاهرة، وقلة ذات يدهم من الاعتراف برسالتهم وتعاليمهم، ويرون فى اتباعهم والاقتداء بهم غضاضة وعاراً، ولقد قال فرعون وهو يستكبر عن رسالة موسى عليه السلام: ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾[٧].

وقال كفار قريش:

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[٨].

---

(١) سورة المدثر الآيات: ٢٣-٢٥.

(٢) سورة المدثر الآية: ٢٦.

(٣) راجع: زاد المسير فى علم التفسير (ج٨ص٤٠٧) بتصرف.

(٤) العتل: الغليظ الجافى، قال تعالى: ﴿**عتل بعد ذلك زنيم**﴾ الآية ١٣ من سورة القلم. وانظر: مختار الصحاح للرازى (ص٤١١).

(٥) الجواظ: بفتح الجيم وتشديد الواو وبالظاء المعجمة: وهو الجموع المنوع، وقيل: الضخم المختال فى مشيته، وقيل: القصير. انظر: رياض الصالحين للنووى (ص١٥٣).

(٦) متفق عليه أخرجه البخارى (ج٨ص٥٠٨) ومسلم برقم (٢٨٥٣).

(٧) سورة الزخرف الآية: ٥٢، ٥٣. (٨) سورة الزخرف الآية: ٣١.

وقول الكفار: هلا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، أما القريتان فمكة والطائف، قاله ابن عباس، والجماعة.

وأما عظيم مكة، ففيه قولان:

أحدهما: الوليد بن المغيرة القرشي، رواه العوفي وغيره عن ابن عباس وبه قال قتادة، والسدي.

والثاني: عتبة بن ربيعة، قاله مجاهد[1].

وفي عظيم الطائف خمسة أقوال:

أحدهما: حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، رواه العوفي عن ابن عباس[2]، وانظر بقية الأقوال في تفسير الطبري، والقرطبي وابن كثير، وزاد المسير لابن الجوزي.

فقال الله عز وجل رداً عليهم وإنكاراً: ﴿**أهم يقسمون رحمة ربك**﴾[3].

يعني النبوة، فيضعونها حين شاؤوا، لأنهم اعترضوا على الله بما قالوا[4]. قال ابن كثير في بيان هذه الآية، ﴿**أهم يقسمون رحمة ربك**﴾ أي ليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلى الله عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً. أهـ[5].

وتارة تكون بشرية الرسول هي السبب المانع- في نظرهم- عن قبول الحق الذي جاء به:

﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾[6].

---

(١) انظر: زاد المسير (ج٧ ص٣١).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) سورة الزخرف الآية: ٣٢.

(٤) راجع: زاد المسير (ج٧ ص٣١٢).

(٥) راجع: تفسير ابن كثير (ج٤ ص٢٥٧).

(٦) سورة التغابن الآية: ٦.

وقول مشركى مكة لرسول الله ﷺ:

﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾[1].

وأحياناً يعتذرون- مستكبرين- عن قبول الحق بحالة اتباعه الاقتصادية الضعيفة، ومهانة حرفهم، وضعة أنسابهم، وخساسة أصلهم، ويجعلون هذا هو المانع لهم من الاشتراك فى الجماعة المسلمة.

﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[2].

فقد افترض المشركون لأنفسهم- لأجل إقبال الدنيا عليهم وجاههم ومواتاة الحظ لهم فى المال والمتاع- إنهم هم المستحقون لكل خير، وإنه لن يكون خيراً مالم يسبق إلى أيديهم ويحضر إليهم:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[3].

هذه هى الأسباب التى يكون بها مترفوا القرية وأغنياؤها وذوو الأموال الطائلة فيها أسبق الناس إلى تكذيب الأنبياء ومعارضة دعوتهم ورسالتهم وأسبقهم إلى الاستطالة والسطو والإجرام:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾[5].

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٧.

(٢) سورة هود الآية: ٢٧.

(٣) سورة الأحقاف الآية: ١١.

(٤) سورة سبأ الآية: ٣٤

(٥) سورة الأنعام الآية: ١٢٣.

وخلاصة القول

فإن الاستكبار أيا كان سببه والدافع اليه، ومهما كانت أشكاله ومظاهره مختلفة فإنه يقع سداً وحاجزاً سميكاً دون التمتع بالقرآن والاستفادة منه. إن الشرط الأساسى فى قبول تعاليم القرآن، وتطبيقها على النفس، وتحكيمها فى الحياة وفى الإذعان لقيادة الأنبياء وهدايتهم، هو التواضع، والتسليم، والرضا، والإيثار:

قال جل شأنه:

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1].

ثانياً: المجادلة:[2]

إن الجدال والمراء فى القرآن الكريم بغير ما دليل وبرهان، ومغالبته بذلاقة اللسان، وسلاطة البيان، والإدلاء بالآراء فيه من غير حجة وسلطان، يحرم من هدايته ويمنع من رفده وفيضه وينم عن كبر مستور فى الصدور.

قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**[3].

جرى الكلام من أول سورة غافر إلى هذه الآية الكريمة فى ميدان الرد على مجادلة المشركين فى آيات الله ودحض شبههم وتوعدهم على كفرهم وضرب الأمثال لهم بأمثالهم من أهل العناد ابتداء من قوله تعالى: **﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾**[4].

---

(١) سورة النساء الآية: ٦٥.

(٢) مجادلة وجدالا، والاسم الجدل: وهو شدة الخصومة. انظر: مختار الصحاح للإمام محمد بن بكر بن عبد القادر الرازى (ص٩٧).

(٣) سورة غافر الآية: ٥٦.

(٤) سورة غافر الآية: ٤.

وقوله تـعالى : ﴿أو لَمْ يَسيرُوا في الأَرْضِ فَينظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقبَةُ الَّذين كَانُوا من قَبْلهِمْ﴾[1].

كما ذكرت أمثال أضدادهم من أهل الكتاب من حضر منهم ومن غبر من قـوله تعـالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[2].

ثم قوله تـعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾[3] وختم ذلـك بوعد النبى ﷺ والمؤمنين بالنصر كما نصر الـنبيون من قبله والذين آمنوا بهم، وأمر بالصبر على عناد قومه والتوجـه إلى عبادة ربه، فكان ذكر الذين يجادلون فى آيات الله سلطان عقب ذلك من باب المثل المشهور «الشئ بالشئ يذكر»[4].

وبهذه المـناسبة انـتقل إلى كشـف ما تكنه صـدور المجادلين من أسـباب جدالهم بغـير حق، ليـعلم الرسول ﷺ دخيـلتهم فلا يحـسب أنهم يكذبونه تنقصـاً له، ولا تجويزاً للكذب عليـه، ولكن الذى يدفعـهم إلى التكذيب هو التكبر عن أن يكونوا تبعاً للرسول ﷺ ووراء الذين سبقوهم بالإيمان ممن كانوا لايعبأون بهم.

وهذا نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[5].

و﴿الذين يجادلون﴾ هم مشـركو أهل مكة وهم المخـبر عنهم فى أول السورة ﴿ما يُجَادلُ في آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾[6].

والمراد بالمجادلة هنا المجـادلة بالباطل، والمعنى: مـا يجادل فى آيات الله أنها من عند الله، فـإن القرآن تحداهم أن يأتوا بمثله فعجـزوا، وإنما هو تلفيق

---

(١) سورة غافر الآية: ٢١.

(٢) سورة غافر الآيات: ٢٣، ٢٤.

(٣) سورة غافر الآية: ٢٨.

(٤) راجع تفسير التحرير والتنوير (ج٢٤ ص١٧٢).

(٥) سورة الأنعام الآية: ٣٣.

(٦) سورة غافر الآية: ٤.

وتستر عن عجـزهم عن ذلك واعتصام بالمكابرة فمجادلتـهم بعد ما تقدم من التحدى دالة على تمكن الكفر منهم وأنهم معاندون وبذلك حصل المقصود من فائدة هذا وإلا فكونهم كفار معلوم[1].

ومن الآيات التى تدل على أن الجدال يمنع من الاستفادة من القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾[2].

ومثل هذه الآية قول الله تعالى: **﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾**[3].

ومعنى **﴿ سعوا فى آياتنا ﴾** اجتهدوا بالصد عنها ومحاولة أبطالها، فالسعى مستعار للجد فى فعل ما، وآيات الله هنا القرآن كما يدل عليه قوله بعد **﴿ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾**[4].

و**﴿ معاجزين ﴾** مبالغة فى معجزين، وهو تمثيل: شبهت حالهم فى مكرهم بالنبى ﷺ بحال من يمشى مشياً سريعاً ليسبق غيره ويعجزه، والعذاب: عذاب جهنم.

والرجز: أسوأ العذاب[5].

قال تعالى: **﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾**[6].

---

(١) راجع التحرير والتنوير (٢٤/ ٨٣).

(٢) سورة الحج الآية: ٥١.

(٣) سورة سبأ الآية: ٥.

(٤) سورة سبأ الآية: ٦.

(٥) انظر تفسير التحرير والتنوير (ج٢٢ ص١٤٣، ١٤٤).

(٦) سورة غافر الآية: ٣٥

وقوله جل شأنه:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[1].

هذا الكلام لتسلية رسول الله ﷺ، ودفع ما حصل معه من الحزن بعدم إيمانهم، أى مثل هذا الجعل ﴿**جعلنا لكل نبى عدو**﴾ والمعنى: كما ابتليناك بهؤلاء فقد ابتلينا الأنبياء من قبلك بقوم من الكفار، فجعلنا لكل واحد منهم عدواً من كفار زمنهم، و﴿**شياطين الانس والجن**﴾ بدل من عدواً، وقيل المفعول الثانى لجعلنا.

والمراد بالشياطين المردة من الفريقين. وجملة ﴿**يوحى بعضهم إلى بعض**﴾ فى محل نصب على الحال، أى حال كونه يوسوس بعضهم لبعض، ويسمى وحياً لأنه إنما يكون خفية بينهم، وجعل تمويههم زخرف القول لتزيينهم إياه، والمزخرف: المزين، و﴿**غرورا**﴾ منتصب على المصدر، لأن معنى يوحى بعضهم إلى بعض يغرونهم بذلك غروراً، والغرور: الباطل[2].

ثالثاً: الكفر بالآخرة وعبادة المادة:

إن من أشد الموانع عن التأثر بالقرآن الكريم والاستفادة منه، الكفر بالآخرة.

لأن أساس القرآن الأول فى ترغيبه وترهيبه، ومواعظه وإصلاحاته هو الإيمان بالآخرة، إنه يحذر من عواقب الآخرة ويطمع فى ثوابها ونعمائها، ويقدم جميع المعلومات اللازمة لهذه الرحلة الخطيرة، ويدل على منازلها ويضئ طريقها، ويعطى عنها تعليماته وإرشاداته، ولأجل ذلك فإن الذين يرجون الآخرة، ويظنون أنهم ملاقوها، لايمكنهم أبداً أن يستغنوا عن القرآن الكريم.

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١١٣.

(٢) انظر: فتح القدير للشوكانى (ج٢ص١٥٣).

يقول جل شأنه:

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[1].

وفى هاء الكناية قولان:

أحدهما: أنها ترجع إلى القرآن.

والثانى: إلى النبى محمد ﷺ، والمعنى: من آمن بالآخرة آمن به، ومن لم يؤمن به، فليس إيمانه بالآخرة حقيقة ولا يعتد به[2].

والأول هو الأرجح لأن سياق الآية يشهد له حيث يقول الله تعالى فى أولها: ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[3].

أما الذين لا يؤمنون بالآخرة، أو يؤمنون بها ولكن رانت على قلوبهم الدنيا واستحوذت عليهم المادة، ولا ينظرون فى جميع قضايا الحياة إلا النظرة المادية البحتة، هؤلاء لا ينفعهم القرآن ولا يؤثر فيهم.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (45) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾[6]. وقوله جل شأنه: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (29) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾[7].

---

(1) سورة الأنعام الآية: ٩٣.
(2) انظر: زاد المسير (جـ٣ ص٨٤).
(3) سورة الانعام الآية: ٩٣.
(4) سورة الإسراء الآية: ٤٥، ٤٦.
(5) سورة النحل الآية: ١٠٤.
(6) سورة النحل الآية: ٢٢.
(7) سورة النجم الآية: ٢٩-٣٠.

والمراد بالذكر هنا القرآن، والمعنى: ترك مجادلتهم فقد بلغت إليهم ما أردت به وليس عليك إلا البلاغ، وهذا منسوخ بآية السيف(١).

إن النظرة المادية المسيطرة عليهم تجعلهم من الغباوة والبلادة بمكان حيث لا تعمل عقولهم فى غير الأشياء المادية، بل تنغلق دونها وينكرون بما وراءها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾(٢).

ويقول جل ثناؤه: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾(٣).

ويقول تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(٤).

وشئ آخر لا يخص الكفار بل يعمهم وغيرهم، هو الاستدلال بالآيات المتشابهة على الأهواء والأغراض الشخصية وإضلال الناس بالتحريفات والتأويلات الباطلة، الذى لا يكون الدافع إليه إلا زيغ القلوب وفساد النوايا، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾(٥).

والمراد بقوله تعالى: ﴿منه آيات محكمات﴾ المحكم: المتقن المبيت، وفى المراد به هاهنا أقوال فانظر فى موضعها(٦).

---

(١) راجع فتح القدير للشوكانى (ج٥ص١١٢).

(٢) سورة يونس الآية: ٧. (٣) سورة النمل الآية: ٦٦.

(٤) سورة الروم الآية: ٧. (٥) سورة آل عمران الآية: ٧.

(٦) انظر: زاد المسير (ج١ص٣٥٠).

وأم الكتاب أصله. قـاله ابن عباس، وابن جبيـر، فكأنه قال: هن أصل الكتاب اللواتى يعمل عليهن فى الأحكام، ومجمع الحلال والحرام[١].

وفى المتشابه أقوال: وللجمهور مذهبان:

أولهما: أن المحكم مـا اتضحت دلالته، والمتشابه ما اسـتأثر الله بعلمه، ونسب هذا القول لمالك بن أنس فى رواية أشهب، من جامع العـتيبة، ونسبه الخفاجى إلى الحنفية وإليه مال الشاطبى فى الموافقات[٢].

وثانيهمـا: أن المحكم الواضح الدلالة، والمتشابه الخفى فيهـا، وإليه مال الفخر[٣]: قال القاسمى: للعلماء فى المحكم والمتشابه أقوال كثيرة، ومباحث واسعة، وأبدع ما رأيته فى تحرير هذا المقام مـقالة سابغة الذيل لشيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية عليه الرحمة والرضوان، ويعنى بهذه المقالة الرسالة الموسومة بـ «الإكليل فى المتشابه والتأويل» وقد أثبـتها القاسمى- رحمه الله - فى تفسيره بطولها[٤].

قوله تـعالى: ﴿**فأما الذين فى قلوبهم زيغ**﴾ فى الزيغ قولان أحـدهما: أنه الشك قاله مجاهد، والسدى، والثانى: أنه الميل قاله أبو مالك[٥].

ويقول ابن قتيبة : فى قلوبهم زيغ أى جور، يقول زغت عن الحق، ومنه قوله: ﴿**أم زاغت عنهم الأبصار**﴾[٦]أى عدلت ومالت[٧] وقوله تعالى: ﴿**ابتغاء القتنة**﴾ أى الفكر، والفتنة تتصرف على وجوه، ذكرها ابن قـتيبة فى كتاب «تأويـل المشـكل»[٨]، وقيل: مـعناه إرادة الشبهات واللبس وهو المخـتار عند الطبرى[٩] ،وفيما اختاره الطبرى ورجحه ما يشهد لنا من أن كثيراً من الكفار

---

(١) راجع: زاد المسير (ج١ص٣٥١).

(٢) راجع: الموافقات للشاطبى (ج٣ ص٨٦) وما بعدها.

(٣) راجع: تفسير التحرير (ج٣ ص١٥٦).

(٤) راجع: محاسن التأويل (ج١ ص٧٥٢).

(٥) انظر: زاد المسير (ج١ص٣٥٣).

(٦) سورة ص الآية: ٦٣.

(٧) انظر: تفسير غريب القرآن: لابن قتيبة (ص١٠١).

(٨) انظر: تأويل المشكل (ص٣٦٢، ٣٦٣).

(٩) راجع تفسير ابن جرير الطبرى (ج٦ ص١٦٧).

وأهل الأهواء والبدع أعمتهم الشبـهات التى أثاروها حول آيات القرآن المتشابه عن نور القرآن وحالت بينهم وبين الانتفاع بهداية القرآن.

وخلاصة القول

فإن الكبـر، والمجادلة، والكفـر بالآخرة، وعـبادة المادة من أقـوى موانع الاستفادة من القرآن الكريم.

المبحث الثالث
مؤيدات الاستفادة من القرآن الكريم

أولاً: الرغبة والطلب:

إن من الشروط الأولية الأساسية للاستفادة من القرآن الكريم والانتفاع به، هو وجود الرغبة إليه، والطلب للاستفادة منه، فمن لم تتحقق عنده الرغبة والطلب ماذا يكون تأثير القرآن فيه؟ إن من سنة الله تعالى ونواميسه أنه لا يعطى إلا بالرغبة والسؤال، وللرغبة والسؤال عنده قيمة كبيرة، فالقلق على الوضع الراهن وعدم الاقتناع به، والجهد للإصلاح والتغيير، والبحث عن الطريق هو أول خطوة عنده فى سبيل السعادة، فلابد من الأوبة والإنابة أولاً ثم تغير الوضع وانقلاب الحال ثانياً.

قال تعالى: ﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ** ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ **كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ** ﴾[2].

ويقول جل شأنه: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾[3].

والمقصود من هذه الآية الكريمة: تحذير مشركى مكة من الإصرار على الشرك بتحذيرهم من حلول العقاب فى الدنيا فى مقابلة استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة، ذلك أنهم كانوا فى نعمة من العيش فبطروا النعمة وقابلوا دعوة الرسول ﷺ بالهزء وعاملوا المؤمنين بالتحقير: ﴿ **وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ﴾[4].

---

(١) سورة الرعد الآية: ٢٧.

(٢) سورة الشورى الآية: ١٣.

(٣) سورة الرعد الآية: ١١.

(٤) سورة الزخرف الآية: ٣١.

ويقول تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾[1] فذكرهم الله تعالى بنعمته عليهم ونبههم إلى أن زوالها لا يكون إلا بسبب أعمالهم السيئة بعد ما أنذرهم ودعاهم[2].

فإن الله تعالى لم يسلبهم حتى عملوا بمعاصيه[3].

أن التولى والاستغناء عن الدين علامة على الشقاء والحرمان المبين: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[4].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[5].

والذين لا رغبة لديهم فى الدين، ولا يجذبهم نداء القرآن، يتحدث عنهم القرآن فيقول:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[6].

والمعنى: إنما يجيبك من يسمع فأما الموتى فـالله يبعثهم شبههم بالموتى[7] وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ﴾[8].

ويقول فى الآية التالية: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ﴾[9].

ويقول تـعالى: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[10].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾[11] وهذا مثل للكافر والمؤمن.

---

(١) سورة المزمل الآية: ١١. (٢) راجع: تفسير التحرير والتنوير (ج١٣ ص١٠١، ١٠٢) بتصرف.
(٣) راجع: زاد المسير (ج٤ ص٣١٢) بتصرف. (٤) سورة التغابن الآية: ٦.
(٥) سورة فاطر الآية: ١٥. (٦) سورة الأنعام الآية: ٣٦.
(٧) راجع: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة (ص١٥٣). (٨) سورة يونس الآية: ٤٢
(٩) سورة يونس الآية: ٤٢. (١٠) سورة النمل الآيات: (٨٠، ٨٢).
(١١) سورة فاطر الآية: ١٩.

ثانياً: الاستماع والاتباع:

القرآن الكريم، كتاب هداية وإرشاد، والدرجة الأولى فى سلم الاستفادة منه هو الاستماع والإصغاء إليه، فمن لم يصغ إليه وينصت له كيف يرقى السلم، وكيف يقطع مراحل الطريق؟.

قال جل شأنه:

﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾[١].

المراد بالعباد هنا العموم، فيدخل الموصوفون بالاجتناب والإنابة إليه دخولاً أولياً، والمعنى: يستمعون القول الحق من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فيتبعون أحسنه أى محكمه، ويعملون به. قال السدى:

يتبعون أحسن ما يؤمرون به فيفعلون بما فيه، وقيل: يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن[٢].

ولكن الاستماع المحض لا يغنى من جوع، فما اقتضى منه العمل، وكله يتطلب العمل ويقتضيه- لابد من الأخذ به وتطبيقه، والعمل عليه- فإن العلم ما لم يصحبه عمل ترف عقلى ليس غير، ولذلك أردف القرآن الكريم ذكر الاتباع بعد الاستماع[٣].

ثالثاً: الخشية والرهبة:

يقول جل شأنه: ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[٤].

قوله تعالى: ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ تطمين للرسول ﷺ بأنه غير

---

(١) سورة الزمر الآية: ١٧، ١٨.

(٢) راجع: فتح القدير للشوكانى (ج٤ص٤٥٦).

(٣) راجع: المدخل إلى الدراسات القرآنية لأبى الحسن الندوى (ص١٣٩).

(٤) سورة ق الآية: ٤٥.

مسؤول عن عدم اهتدائهم لأنه إنما بعث داعياً وهادياً، وليس مبعوثاً لإرغامهم على الإيمان.

والجبار: مشتق من جبره على الأمر أى أكرهه[١].

وفرع عليه أمره بالتذكير لأنه ناشئ عن نفى كونه جباراً عليهم وهذا كقوله تعالى: ﴿ذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾[٢].

ولكن خص التذكير هنا بالمؤمنين لأنه أراد التذكير الذى ينفع المذكر، فالمعنى: فذكر بالقرآن الكريم فيتذكر من يخاف وعيد. وهذا كقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾[٣] إن أساس القرآن الكريم يقوم على الإيمان بالله رب العالمين وعلى خشيته والرهبة والاستشعار بجلاله وكبريائه، فمن فرغ قلبه من خشية الله، ولم يعد لديه لاسم الله تأثير وجاذبية وجلال، فقد أضاع رأس مال الدين، وفقد حاسته وانطمست مشاعره، ومعلوم أن من يفقد حاسة من الحواس فإنه يفقد تبعاً الإحساس بالمحسوسات المتعلقة بها، ولا يمكن له بعد ذلك إدراكها.

وقد صرح القرآن الكريم بأنه يستفيد منه من يخشى الله، ويشعر بعظمته وجلاله.

والذى لا تزال تحت رماده جمرة متقدة، أما من ظلت مراجل قلوبهم خامدة باردة، فإنهم يستمعون إلى القرآن بقلوب باردة، ولا يرجعون بحرارة وقبسات مشتعلة.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾[٤]

ويقول جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[٥].

---

(١) راجع: تفسير التحرير والتنوير (ج٢٦ ص٣٣٣).

(٢) سورة الغاشية الآية: ٢١، ٢٢.

(٣) سورة النازعات الآية: ٤٥.

(٤) سورة يس الآية: ١١.

(٥) سورة الملك الآية: ١٢.

ويقول تعالى: ﴿سيذكر من يخشى﴾[1].

ويقول جل شأنه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[2].

يقول الامام النووى[3]: فإذا شرع فى القراءة فليكن شأنه الخشوع والتدبر عند القراءة، والدلائل عليه أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر، فهو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب.

رابعاً: الإيمان بالغيب:

والإيمان بالغيب هو الاعتقاد بموجود وراء المحسوس. يقول صاحب المنار فيما نقله عن الأستاذ محمد عبده[4]: وصاحب الاعتقاد واقف على طريق الرشاد وقائم على أول النهج لا يحتاج إلا إلى من يدله على المسلك، ويأخذ بيده إلى الغاية، فإن من يعتقد بأن وراء المحسوسات موجودات يصدق بها العقل، وإن كانت لايأتى عليها الحس، إذا أقمت له الدليل على وجود فاطر السموات والأرض المستعلى عن المادة ولواحقها، المتصف بما وصف به نفسه على السنة رسله، سهل عليه التصديق وخف عليه النظر فى جلى المقدمات وخفيها، وإذا جاء الرسول بوصف اليوم الآخر أو بذكر عالم من العوالم التى استأثر الله بعلمها، كعالم الملائكة مثلاً لم يشق على نفسه تصديق ماجاء به الخبر بعد ثبوت النبوة، لهذا جعل الله سبحانه وتعالى هذا الوصف فى مقدمة أوصاف المتقين الذين يجدون فى القرآن هدى لهم.

وأما من لايعرف من الموجود إلا المحسوس ويظن أن لاشئ وراء المحسوسات وما اشتملت عليه، فنفسه تنفر من ذكر ما وراء مشهوده أو ما يشبه مشهوده.

---

(١) سورة الأعلى الآية: ١٠. (٢) سورة الزمر الآية: ٢٢.

(٣) راجع: التبيان فى آداب حملة القرآن ص٦٥ - ٦٦.

(٤) انظر: تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا (ج١ ص١٢٧)

وقلما تجد السبيل إلى قلبه، إذ بـدأته بدعواك، فمثل هذا إذا عرض عليه القرآن نبأ عنه سمعه، ولم يجمل من نفسه وقعه فكيف يجد فيه هداية، أو منقذاً من غواية؟.

ولما كان الإيمان بالغيب يطلق عند الناس على ذلك الاستسلام التقليدى الذى لم يأخذ من النفس إلا ما أخذ اللفظ من اللسان، وليس له أثر فى الأفعال، لأنه لم يقع تحت نظر العقل، ولم يلحظه وجـدان القلب، بل أغلقت عليه خزانة الوهم، ومثل هذا الذى يسمونه إيماناً لايفيد فى إعداد القلب للاهتداء بالقرآن[١].

لما كان هذا شأنـهم من الله علينا ببيان يشعـر بحقيقة مـا أراده تعالى من معنى الإيمان فذكر علامات المؤمنين بالغيـب الذين ينتفعون بهداية القرآن يقول تعـالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[٢].

إن صـفـات الله تعالـى والوحى، والملائكة، والآخـرة، والجنة، والنار، وأمثـال هذه، كلها حـقائق لا تنافى العـقل ولا تعارضه، ولكـنها وراء طور العقل وفـوق حدوده وأبعاده وأنها من الغـيوب[٣] التى لابد فيـها من الثـقة الكاملة بالأنبياء والمرسلين والإذعان الكامل لكل ما يقولون ويأتون به وهذا هو المراد (بالإيمان بالغيب)[٤].

والذين هم أسرى المحسوسات والماديات فى يقينهم على شئ وثقتهم به، ويجحدون بكل مـا لاتسعه عقولهم، وقيـاساتهم إنهم- فى الواقع- جاهلون بحقـيقة الدين، وإنه غـير ميـسور لهم أن يدخلوا حدود الدين وآفـاقه، إنهم لايستفـيدون من القرآن، بل يواجهون فى القـرآن على كل خطوة فى رحلتهم فيه عقبات ومشاكل.

(١) راجع تفسير المنار (ج١ ص١٢٨). (٢) سورة البقرة الآيات ١، ٤.

(٣) الغيب: ما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة بحيث لايدرك بواحد منهما بطريق البداهة.

(٤) انظر: تفصيل هذا الموضوع فى كتاب: (بين الدين والمدنية) لأبى الحسن الندوى.

أما الذين لايعبدون المادة ولايخضعون لحواسهم خضوعاً كاملاً، ويعلمون أن دائرة (الممكنات) أوسع، وأنها ليست منحصرة فى الموجودات والمحسوسات، أولئك هم العالمون بحقيقة الدين، وأن مصدرهم العلمى القطعى ليس إلا وحى الله، إنهم يثقون بأخبار الأنبياء وتعاليمهم كل الثقة، فلا تواجههم مشكلة، ولا تقطع طريقهم أى معضلة، ويظل لهم الدين حقيقة واضحة مفهومة، ويبقى لهم القرآن هداية منيرة ساطعة[1]. أنه: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ للذين يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾[2].

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾[3].

خامسا: التدبر:

إن من شروط الاستفادة من القرآن الكريم التدبر كذلك، والدلائل عليه كثيرة فى القرآن الكريم، ومتعددة، قال الله عز وجل: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيراً ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[5].

وقال جل شأنه:

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[6].

وقد وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم يتلون كتاب الله بفهم وتفكير، ولا يخرون عليه صما وعمياناً:

---

(١) راجع المدخل إلى الدراسات القرآنية (ص١٤٢).

(٢) سورة البقرة الآية: ٢، ٣.

(٣) سورة البقرة الآية: ٢٦.

(٤) سورة النساء الآية: ٨٢.

(٥) سورة ص الآية: ٢٩.

(٦) سورة محمد الآية: ٢٤.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[1]

ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله ﷺ استنباط مانبه على معانيه، وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد، فيمتازوا بذلك عن غيرهم، ويختصوا بثواب اجتهادهم.

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[2].

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول للناس بأن هذا القرآن أوحى إليه لينذر الناس كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[3].

والإنذار يجب أن يفهم حتى يتحقق الغرض من توجيهه، وإلا فإن الإنسان الذى لم يفهم الإنذار ولم يحاول أن يستعين بأحد لفهمه لا ينتفع من اغتنام الفرصة، إن القرآن ينذر كل من يكفر به بالنار، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[4].

إن فهم القرآن وتدبره هو الخطوة الأولى لوعى الإنذار، ومن هنا كان الأمر بالتدبر فى عدد من آيات كتاب الله تعالى[5].

سادساً: المجاهدة:

إن مما يعين المسلم على فهم القرآن الكريم وتدبره وكشف حقائقه واتباعه والعمل به، المجاهدة وتحمل المشاق- إلى حد ما - وشئ من التضحية والكفاح، فليس القرآن من الكتب البشرية التى يحيط أى إنسان بمحتوياتها، ويتعرف أغراض مؤلفيها ومقاصدهم بمجرد ذكائه وفطنته وعلمه، بل إنه يحتاج للعلم

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٧٣. (٢) سورة المجادلة الآية: ١١.

(٣) سورة الأنعام الآية: ١٩. (٤) سورة هود الآية: ١٧.

(٥) راجع: مزيد من التفصيل فى بحوث أصول التفسير د. محمد لطفى الصباغ (ص٤٣).

بمقاصد الله - عز وجل - إلى مرضاته وإعانته، فاذا تكبد الإنسان للحصول على مرضاته المشاق فى سبيله، وعمل على طهارة قلبه وتزكية نفسه، وتحسين أخلاقه، تقبل عليه رحمة الله، ويدنو منه فيضه ويشرح له صدره، ويعطيه الحكمة والعلم.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

والعامل الثانى: هو أن الإنسان كلما حاول وبذل جهده، وتجشم المصاعب والمشاق لغرض ما من الأغراض، وضحى لأجله، فإنه يملك عليه مشاعره، ويهيمن عليه لذته وتأثيره، ويتكيف به ويحس بحلاوته وبشاشته.

والعامل الثالث: هو أن معظم القرآن عملى، ليس نظرياً، فلا يمكن إذن فهمه بطريقة نظرية فحسب، إن الذى يريد أن يتعرف على حقائق القرآن الكريم، لابد له من تجارب يعيشها مع آيات الكتاب العزيز وعمل يحققه فى واقع الحياة[2].

وهذا ما كان عليه الرسول الكريم ﷺ فى تطبيقه لآيات القرآن ملتزماً لأوامره منتهياً عن نواهيه، فكان كما قالت أمنا عائشة رضى الله عنها تصف أخلاق رسولنا الكريم ﷺ «كان خلقه القرآن»[3].

تعنى: كان على ما أمره الله به فى القرآن[4].

قال الحافظ ابن كثير: ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجية له وخلقاً تطبعه وترك طبعه الجبلى، فمهما أمره القرآن

---

(١) سورة العنكبوت الآية: ٦٩.

(٢) راجع: المدخل إلى الدراسات القرآنية ص١٤٤.

(٣) هو قطعة من حديث طويل رواه الإمام أحمد فى مسنده (٦/ ٥١، ٥٢)، ورواه مسلم (ج١ص٥١٢) بنحو حديث أحمد، ورواه الحاكم فى المستدرك (ج٢ص٤٩٩) مختصراً، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى، وأورده السيوطى فى الدار المنثور (ج٦ص٥٠) مختصراً، وزاد نسبته لابن أبى شيبة، وعبد بن حميد وابن المنذر وغيرهم.

(٤) راجع: زاد المسير (ج٨ص٤٢٩).

فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم، والشجاعة، والصفح، والحلم، وكل خلق جميل[1]. فمعايشة القرآن تطبيقاً فى واقع الحياة كانت من أهم المميزات التى ظهرت فى حياة الصحابة- رضى الله تعالى عنهم- كما أعانهم التطبيق العلمى لآيات الله تعالى، على فهم القرآن وإدراك معانيه.

سابعاً: التأدب والتعظيم:

من المفيد أن يلاحظ المسلم، أن الاستفادة من القرآن الكريم، واستمداد الهداية والفيض منه، هذه الحقيقة المهمة، وهى أن القرآن ليس سجلاً للمعلومات، ومجموعة للقوانين والضوابط فحسب، تقرأ وتطالع كما يشاء الإنسان، ويطلع على ما فيها، ويستوعب محتوياتها، كلا أنه كلام أحكم الحاكمين، الذى اتصف بصفات الجلال والجمال، والعطاء والنوال، والتى هى صفاته وأسماؤه:

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾[2]. والذى قال عن كلامه بنفسه ووصف بقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

والمعنى: لوكان المخاطب بالقرآن جبلاً، وكان الجبل يفهم الخطاب لتأثر بخطاب القران تأثراً ناشئاً من خشية الله، خشية تؤثرها فيه معانى القرآن.

والمعنى: لو كان الجبل فى موضع هؤلاء الذين نسوا الله وأعرضوا عن فهم القرآن ولم يتعظوا بمواعظه لاتعظ الجبل وتصدع صخره وتربه من شدة تأثره بخشية الله، وضرب التصدع مثلا لشدة الانفعال والتأثر لأن منتهى تأثر الأجسام الصلبة أن تنشق وتتصدع إذ لا يحصل لها ذلك بسهولة [4].

---

(١) راجع: تفسير ابن كثير (ج٤) فى أول سورة القلم.
(٢) سورة الحشر الآية: ٢٣.
(٣) سورة الحشر الآية: ٢١.
(٤) راجع: تفسير التحرير والتنوير (ج٢٨ ص١١٦).

ويقول المولى جل شأنه فى وصف القرآن الكريم:

﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾[2].

يقول العلامة شبير أحمد العثمانى فى حواشيه عن القرآن الكريم:[3]

﴿لايمسه إلا المطهرون﴾ بمعنى خبر. يعنى أن أصحاب القلوب الطاهرة والأخلاق الزكية هم الذين يتوصلون إلى علومه وحقائقه، أو بمعنى أمر، يعنى أنه لا يجوز أن يمسه إلا طاهر متوضئ كما ثبت ذلك بالأحاديث النبوية- صلى الله على صاحبها وسلم- وإذا كان القرآن الكريم قد عظم الله شأنه، فأنزله فى أفضل الشهور (شهر رمضان) وفى أفضل الليالى (ليلة القدر) واختار الواسطة له الروح الأمين(جبريل عليه السلام - وأخبر أنه فى: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[4] أفلا يكون من واجب المسلمين أن يعظموا هذا الكتاب المبين غاية التعظيم، ويجلوه غاية الإجلال[5].

والنتيجة الطبيعية لمن يدركون شيئاً من القرآن، ويعرفون شيئاً من عظمته لايمر عليهم القرآن بدون تأثير فعل وتغيير. قال تعالى فى وصف المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[6].

ويقول جل شأنه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[7].

---

(١) سورة عبس الآيات: ١٣، ١٦. (٢) سورة الواقعة الآيات: ٧٧، ٧٩.

(٣) انظر هامش المدخل إلى الدراسات القرآنية لأبى الحسن الندوى (ص١٤٦).

(٤) سورة عبس الآية: ١٣، ١٦. (٥) راجع روائع البيان تفسير آيات الأحكام (ج٢ص٥١١).

(٦) سورة الأنفال الآية: ٢. (٧) سورة الزمر الآية: ٢٣.

ويخبرنا تعالى عما ينتظر الذين يتلون القرآن وينتفعون به فيقول جل شأنه:
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾(1).

يعنى أنهم يتلون كتاب الله باكبار وإكرام، ويطالعونه بحب وشغف كما يطالعون رسالة الحبيب الأثير. ويفيد فى هذا الصدد دراسة ما يلى: -

أولاً: العناية بدراسة كتب فضائل القرآن الكريم من خلال ما ورد فى كتب السنة المطهرة، ومراجعة كتاب فضائل القرآن الكريم للإمام عماد الدين بن كثير الدمشقى صاحب التفسير المشهور.

ثانياً: دراسة وقائع وسير الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، والفقهاء المحدثين والعلماء الربانيين فى كتب السير والتراجم والطبقات التى ذكر فيها شغفهم بالقرآن الكريم وولعهم به، وكيفيتهم وتأدبهم معه واحترامهم وتعظيمهم إياه، وكيف كانت تلاوة ترقق قلوبهم وتجللهم بالسكينة وتغمرهم بالفيض، فإنها ستكون حافزة للأشواق مفتحة للأبصار، مؤثرة للقلوب أكثر من أى شئ آخر(2).

وخلاصة القول

فإن مؤيدات الاستفادة من القرآن الكريم والانتفاع به تتلخص فى الآتى:

١- الرغبة والطلب: لأن من سنة الله تعالى ونواميسه أنه لا يعطى إلا بالرغبة، لأن التوالى والاستغناء عن الله تعالى علامة على الشقاء والحرمان المبين.

(١) سورة فاطر الآية: ٢٩ (٢) يرجع للقصص المؤثرة المشوقة المثيرة للوجدان فى هذا الباب من الكتب التالية: كتاب«قيام الليل» لمحمد بن نصر المروزى، وكتاب «صفة الصفوة» لابن الجوزى و«إحياءعلوم الدين» للإمام الغزالى، و«حلية الأولياء» لأبى نعيم الأصبهانى.

٢- الاستماع والاتباع: فالقرآن كتاب هداية وإرشاد، ومن شرط الاستفادة منه هو الاستماع والإصغاء إليه فمن لم يصغ إليه ولم ينصت له فإنه لا سبيل لهدايته بالقرآن الكريم.

٣- الخشية والرهبة: لأن أساس القرآن الكريم يقوم على تصور الله تعالى وخشيته والرهبة منه، وقد صرح القرآن الكريم بأنه يستفيد منه من يخشى الله ويشعر بعظمته وجلاله.

٤- الإيمان بالغيب: لهذا جعل الله سبحانه هذا الوصف فى مقدمة أوصاف المتقين الذين يجدون فى القرآن هدى لهم.

٥- التدبر: قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾[1].

لأن من شروط الاستفادة من القرآن الكريم التدبر لآياته والأدلة على ذلك كثيرة مشهورة، وقد ذكرنا جملة منها فى الصفحات الماضية.

٦- المجاهدة: إن مما يعين المسلم على فهم القرآن الكريم وتدبره وكشف حقائقه والعمل به، المجاهدة وتحمل المشاق فى فهمه، فالذى يريد أن يتعرف على حقائق القرآن الكريم لابد له من تجارب يعيشها مع آيات الكتاب العزيز وعمل يحققه فى واقع الحياة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

٧- التأدب والتعظيم: لكى يستفيد المسلم من القرآن الكريم لابد له أن يدرك أن القرآن الكريم ليس سجلاً للمعلومات ومجموعة للقوانين فحسب يطلع الإنسان على ما فيها ويستوعبها متى شاء، كلا فالقرآن الكريم كلام الله تعالى ومن أراد الانتفاع به فليزمه الأدب مع القرآن الكريم والتعظيم له، وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. والله الموافق.

---

(١) سورة ص الآية: ٢٩.

(٢) سورة العنكبوت الآية: ٦٩.

المبحث الرابع
نماذج من تدبر السلف وتلاوتهم للقرآن الكريم

إن المتصفح لتاريخ سلفنا الصالح الذين تلقوا من رسول الله ﷺ القرآن غضاً طرياً، يجد أنهم بالـقرآن والسنة استطاعـوا تحقيق الأمانـى التى لايكاد العقل يتصورها، فقد كان القرآن مصدر عزتهم وقوتهم، وبادراكهم لذلك كانوا يدأبون عليه تلاوة وعملاً ودراسة، وكانوا تتمثل فيهم صفات الإيمان بالقرآن التى ذكرها الله تعالى فى قوله:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1].

وكانوا متفاعلين معه فى أمره ونهيه، ووعده ووعيده، ومواعظه وأمثاله، قد أشربت قلوبهم حبه، وجرى فى أرواحهم وعقولهم مجرى الدم فى العروق، منعكسة آدابه وأخلاقه عل معاملاتهم، فكان كل منهم صورة حية لهداية القرآن. متأثرين فى ذلك بالرسول العظيم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، الذى تصفه أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بقولها- «كان خلقه القرآن»[2] يصدرون فى السلم والحرب والرضى والغضب والمكره والمنشط عن توجـيهه ودلالته، فكان الجندى منهم إذا انطلق مجاهداً فى سبيل الله يضع كتاب الله نصب عينيه، لا يرفع السيف ولا يضعه إلا بإشارته.

وهذا الذى دعا أعـداءهم إلى أكبارهم وخـشية بأسـهم، فكانوا يتناقلون صفاتهم فيما بينهم فى عبارات ثناء ومدح[3].

---

(١) سورة السجدة الآية: ١٥، ١٦.

(٢) أخـرجه الإمـام أحـمـد فى مسنده (ج٦ ص٥١ وص٥٢) ومـسلم بنحـوه (ج١ص٥١٢) والحـاكم فى المستدرك (ج٢ص٤٩٩) وأورده ابن الجوزى فى زاد المسير (ج٨ص٤٢٨، ٤٢٩).

(٣) راجع: جواهر التفسير للشيخ أحمد بن أحمد الخليلى (ج١ص٧).

وسوف أذكر تحت هذا المبحث قصصاً للصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والعلماء الراسخين، والأولياء العارفين، تمثل نماذج ولعهم بالقرآن الكريم وشغفهم به، وتأدبهم معه وأكبارهم له، وانهماكهم فى تلاوته وتذوقهم لحلاوته ولذته، وأعظم المتدبرين للقرآن الكريم والمنتفعين بهدايته هو رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، الذى أنزل عليه هذا القرآن.

روى الإمام وغيره عن عبد الله بن مسعود، قال: قال لى رسول الله ﷺ: «اقرأ على القرآن» قال: فقلت: يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل؟.

قال: «انى أشتهى أن أسمعه من غيرى» فقرأت (النساء) حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[1] رفعت رأسى، أو غمزنى رجل إلى جنبى فرفعت رأسى، فرأيت دموعه تسيل[2].

وعن أبى ذر- رضى الله عنه- قال: «قام رسول الله ﷺ حتى أصبح يتلو آية واحدة من كتاب الله، بها يركع وبها يسجد، وبها يدعو، حتى أصبح:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[3].

فلما أصبح قلت: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها، قال: «سألت ربى عز وجل الشفاعة لأمتى، فأعطانيها، وهى نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله عز وجل شيئاً»[4].

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان أبو بكر رضى الله عنه رجلاً بكاءً، لا يملك دمعه إذا قرأ القرآن»[5].

(١) سورة النساء الآية: ٤١.

(٢) هذا لفظ الإمام مسلم، والحديث أخرجه الإمام أحمد فى المسند حديث (رقم ٣٥٥٠)، والبخارى فى صحيحه (ج٩ ص٨١) ومسلم (ج١ ص٥٥١).

(٣) سورة المائدة الآية: ١١٩.

(٤) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (ج٥ ص١٤٩) ورجاله ثقات، خلا جسرة بنت دجاجة العامرية، فإنه لم يوثقها سوى العجلى وابن حبان، وقال البخارى: عند جسرة عجائب. انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى (ج١٢ ص٤٠٦).

(٥) انظر: كتاب (قيام الليل) للإمام محمد بن نصر المروزى (ص٥٧).

وعن أبى رافع قال: كان عمر بن الخطاب يقرأ فى صلاة الغداة بالمئين بالكهف، ومريم، وطه، واقترب، ونحوهن من السور، فإنى يوماً مع عمر -رضى الله عنه- فى صلاة الغداة وأنا فى آخر صفوف الرجال ما يلى النساء وهو يقرأ التى يذكر فيها يوسف فمر بهذه الأية.

﴿**إنما أشكو بثى وحزنى الى الله**﴾[1].

وكان جهير القراءة فبكى حتى انقطعت قراءته وحتى سمعت نحيبه»[2].

وعن ابن عمر- رضى الله عنهما- قال: (غلب على عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- البكاء فى صلاة الصبح حتى سمعت نحيبه من وراء ثلاث صفوف)[3].

وعن الحسن رضى الله عنه قال: (كان عمر بن الخطاب- رضى الله عنه - يمر بالآية من ورده بالليل، فيبكى حتى يسقط، ويبقى فى البيت حتى يعاد للمرض)[4].

وعن محمد بن سيرين قال: (قالت امرأة عثمان حين أطافوا به يريدون قتله: إن تقتلوه أو تتركوه فإنه كان يُحيى الليل بركعة يجمع فيها القرآن)[5].

أخرج البيهقى فى الأسماء والصفات بسنده عن الحسن قال: قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه (لو أن قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا، وأنى لأكره أن يأتى على يوم لا أنظر فى المصحف، وما مات عثمان رضى الله عنه حتى خرق مصحفه من كثرة ما كان يديم النظر فيه)[6].

---

(١) سورة يوسف الآية: ٨٦.
(٢) راجع: كتاب قيام الليل (ص٥٧).
(٣) انظر: كتاب قيام الليل (ص٥٧).
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) راجع: الاستيعاب لابن عبد البر (ج٢ ص٤٤٨).
(٦) أخرجه البيهقى فى كتاب الأسماء والصفات (ج١ ص٣٧٩)، وأخرجه الصغانى فى المصنف فى كتاب الاعتقاد (٦٤) باب القول فى القرآن إلى قوله: وإننى لأكره أن يأتى علـى يوم لا أنظر فى المصحف، وانظر: حياة الصحابة للكاندهلوى (ج٤ص٢٣، ٢٤).

وقد كان سيـدنا علىٌّ بن أبى طالب -رضى الله عنه- انصرف إلى جمع القرآن بعد وفاة الرسول ﷺ انصرافاً كلياً حتى لم يخرج من بيته عدة أيام)[١].

شعور الصحابة نحو القرآن:

لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته، إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله فى خاصة شأنه وشأن الجماعة التى يعيش فيها، وشأن الحياة التى يحياها هو وجماعته، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه كما يتلقى الجندى فى الميدان (الأمر اليومى) ليعمل به فور تلقيه. ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه فى الجلسة الواحدة، لأنه يحس أنه إنما يستكثر من وآجبات وتكاليف يجعلها على عـاتقة. فكان يكتفى بعشر آيات حتى يحـفظها ويعمل بها[٢].

بل كانوا لا يجاوزون آية إلى أخرى حتى يعملوا بما فـيها، فتعلموا العلم والعمل جميعاً[٣].

وعن عبـد الله بن مسعـود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عـشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن[٤].

وعن أبى عبد الرحمن السلمى قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبى ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً[٥].

---

(١) انظر: الاستيعاب (ج٢ص٤٧٧).

(٢) راجع: معالم فى الطريق للأستاذ سيد قطب (ص١٧-١٩).

(٣) انظر: هذا فى مقدمة تفسير الطبرى تحقيق شاكر (ج١ ص٨٠).

(٤) ذكره ابن كثير فى مقدمة تفسير الطبرى (ج١ ص٣).

(٥) انظر: مقدمة تفسير الطبرى (ج١ص٨٠).

ومن هنا نستطيع أن ندرك مدلول الخبر الذى نقل عن واحد من الصحابة وهو عبد الله بن عمر أنه حفظ سورة البقرة فى ثمانى سنوات[١].

وقد رد مثل هذه الروايات والقصص فى كتب التاريخ والسير عن عبد الله ابن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن رواحة، وعبد الله بن عباس، وعبد الرحمن بن عوف- رضى الله عنهم أجمعين- وأمثالهم من الصحابة الأجلة، وعن سعيد بن جبير، ومالك بن أنس، ومنصور بن المعتمر وغيرهم من التابعين الكرام، فى تلاوتهم للقرآن الكريم وخشوعهم عنده، وبكائهم وتأثرهم.

ورد أن سعيد بن جبير- رضى الله عنه- أم الناس فى رمضان فجعل يردد قول الله تعالى: ﴿ **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ** ﴾[٢] مراراً[٣].

وقام ليلة فقرأ:

﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾[٤].

فرددها بضعاً وعشرين مرة، وكان يبكى بالليل حتى عمش[٥]. وردد الحسن (البصرى) ليلة:

﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾[٦] حتى أصبح فقيل له فى ذلك فقال:

---

(١) جاء فى تفسير القرطبى (ج١ص٣٩- ٤٠) (وفى موطأ مالك أنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلمها) وانظر الموطأ (١/ ٢٠٥) ط . عبد الباقى.

(٢) سورة غافر الآية: ٧٠، ٧٢.

(٣) انظر: كتاب قيام الليل (ص٥٩).

(٤) سورة البقرة الآية: ٢٨١.

(٥) راجع كتاب قيام الليل (ص٥٩).

(٦)سورة إبراهيم الآية: ٣٤.

إن فيها معتبراً، ما نرفع طرفاً ولا نرده إلا وقع على نعمة، وما لانعلمه من نعم الله أكثر[١]. وقام الإمام أبو حنيفة ليلة يردد:

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [٢] حتى أصبح [٣].

خلاصة القول

إن هذه السلسة من هذه الانفعالات المؤثرة والاستجابة القوية للقرآن الكريم لم تزل تنتقل من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر، واستمر شغف هذه الأمة المسلمة بكلام الله وهيامها به، وفيض القرآن وتأثيره من دون انقطاع أو فترة. وقد حفظ التاريخ وقائع وقصصاً مثيرة للعلماء والمجددين والمصلحين والمحققين العارفين فى كل عصر، لغرامهم بالقرآن الكريم وشغفها به، واستغراقهم فى تلاوته وأنسهم به، وفيما ذكرنا من قصصهم العبرة لمن يريد أن ينتفع بالقرآن الكريم ويقتدى بسير الصالحين والعلماء العاملين، ومن أراد المزيد من هذه الأخبار فليطلبها فى مظانها[٤].

إن هذا القرآن هدى للمؤمنين وشفاء، فقلوب المؤمنين هى التى تدرك طبيعته وحقيقته، فتهتدى به وتشفى، فأما الذين لا يؤمنون فقلوبهم مطموسة، لاتخالطها بشاشة هذا القرآن فهو وقر فى آذانهم. وعمى فى قلوبهم، وهم لا يتبينون شيئاً لأنهم بعيدون عن طبيعة هذا القرآن وهواتفه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[٥].

---

(١) راجع: كتاب قيام الليل لمحمد بن ناصر المروزى (ص٥٩-٦٠).

(٢) سورة القمر الآية: ٤٦.

(٣) انظر (الخيرات الحسان فى مناقب أبى حنيفة النعمان) للشيخ أحمد بن حجر الهيتمى المكى.

(٤) راجع فى ذلك: أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير، والاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر، وتهذيب التهذيب لابن حجر، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبى نعيم الاصبهانى، وصفة الصفوة، للإمام أبى الفرج بن الجوزى.

(٥) سورة فصلت الآية: ٤٤.

ويجد الإنسان مصداق هذا القول فى كل زمان وفى كل بيئة[1]. فناس يفعل هذا القرآن فى نفوسهم فينشئها إنشاء ويحييها إحياء، ويصنع بها ومنها العظائم فى ذاتها وفيما حولها، وناس يثقل هذا القرآن على آذانهم وعلى قلوبهم، ولا يزيدها إلا صمماً وعمى، وما تغير القرآن، ولكن تغيرت القلوب وصدق الله العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) راجع فى ظلال القرآن (ج١ ص٣٨-٣٩).

فهرس المراجع مرتبة على حسب ورودها فى البحث

١- السنن:

للإمام محمد بن عيسى الترمذى، تحقيق أحمد شاكر وآخرين، الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ.

٢- فضائل القرآن الكريم:

للإمام الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى، دار الأندلس لبنان- بيروت.

٣- سنن الدارمى:

للإمام الحافظ أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمى. الناشر دار إحياء السنة النبوية.

٤- لسان العرب:

لابن منظور الأفريقى، تصوير دار الطباعة والنشر بيروت- لبنان عام ١٣٨٨هـ.

٥- الصحاح:

للجوهرى، طبعه صادر ودار بيروت.

٦- معجم مقاييس اللغة:

لابن فارس، طبعة مصطفى البابى الحلبى.

٧- مختار الصحاح:

للشيخ الإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى، دار المعارف، القاهرة مصر.

٨- المصباح المنير:

للعلامة أحمد بن على الفيومى المقرئ، مكتبة لبنان بيروت ١٩٨٧م.

٩- تفسير التحرير والتنوير:

للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر عام ١٩٨٤م.

١٠- الجامع لأحكام القرآن:

للإمام أبى عبد الله محمد بن أحمد القرطبى- دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، عام ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

١١- البحر المحيط:

للإمام أبى عبد الله محمد بن يوسف بن حيان الأندلسى، الشهير بأبى حيان ت٧٥٤هـ مطابع النصر الحديثة- الرياض.

١٢ - روح المعانى فى تفسير القرآن والسبع المثانى:

للإمام شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى- إدارة الطباعة المنيرية (مصورة بدار إحياء التراث العربى بيروت).

١٣- التفسير الكبير:

الفخر الرازى، الطبعة الأولى الناشر عبد الرحمن محمد القاهرة.

١٤- فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير، تأليف محمد بن على الشوكانى، دار الفكر ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

١٥- روائع البيان - تفسير آيات الأحكام، محمد على الصابونى، مكتبة الغزالى دمشق سورية، الطبعة الثانية عام ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

١٦- تفسير القرآن الحكيم- الشهير بتفسير المنار، تأليف محمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت، الطبعة الثانية (أعيد طبعه بالأوفست).

١٧- الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى، الناشر محمد أمين دمج، بيروت مؤسسة الرسالة.

١٨- نوادر الأصول فى معرفة أحاديث الرسول: أبى عبد الله محمد الحكيم الترمذى دار صادر، بيروت.

١٩- فيض القـدير شرح الجامع الصغـير، عبد الرؤوف المناوى، الطبـعة الأولى ١٣٥٦هـ - ١٩٣٨م المكتبة التجارية الكبرى بمصر.

٢٠- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للإمام الحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى ت٦٧٦هـ مطبعة الإمام، بمصر.

٢١- المدخل إلى الدراسـات القـرآنية، الشـيخ أبى الحـسن الندوى، دار الصحوة للنشر الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٢٢- المعجم الوسـيط، تأليف مجمع اللغة العـربية، المكتبة الإسـلامية، استنبول تركيا، الطبعة الثانية.

٢٣- علوم القرآن الدكتور/ عدنان محمد زرزور المكتب الإسلامى، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٢٤- مناهل العرفان فى علوم القرآن، الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاه.

٢٥- النبأ العظيم: الدكتور محمد عبد الله دراز، دار القلم الكويت، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

٢٦- دراسات حـول القرآن الكريم د. إسماعـيل أحمد الطحان، مكتـبة الأقصى قطر، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٢٧- ضحى الإسلام، أحمد أمين.

٢٨- الإتقان فى علوم القرآن للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى، دار إحياء العلوم بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م. قدم له وعلق عليه محمد شريف سكر.

٢٩- رياض الصالحين، للإمام أبى زكريا يحـيى بن شرف النووى تحقيق شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة، الطبعة السادسة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

٣٠- صحيح البخـارى بحاشية السندى: للإمام أبى عبـد الله محمد بن إسماعيل البخارى، دار الفكر - بيروت.

٣١- صحيح مسلم: للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى - دار إحياء التراث العربى، بيروت.

٣٢- تفسير القرآن العظيم: للإمام عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى دار الفكر - بيروت.

٣٣- الموافقات فى أصول الشريعة، للإمام الشاطبى، دار المعرفة بيروت- لبنان.

٣٤- محاسن التأويل: المعروف بـ(تفسير القاسمى) لمحمد جمال الدين القاسمى، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى، مطبعة عيسى الحلبى، القاهرة، الطبعة الأولى عام ١٣٧٦هـ.

٣٥- تفسير غريب القرآن، لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، بتحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان - عام ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

٣٦- تأويل مشكل القرآن: لابن قتيبة، طبعة عيسى الحلبى عام ١٣٧٣هـ.

٣٧- التبيان فى آداب حملة القرآن، الإمام النووى، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣٨- تهذيب الأسماء واللغات، للإمام أبى زكريا محى الدين بن شرف النووى، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

٣٩- بحوث فى أصول التفسير، الدكتور/ محمد لطفى الصباغ، المكتب الإسلامى، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٤٠- مسند الإمام أحمد بن حنبل وبهامشه منتخب كنز العمال، للإمام المتقى: المكتب الإسلامى للطباعة والنشر - بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

٤١- المستدرك على الصحيحين فى الحديث: للإمام أبى عبد الله محمد ابن عبد الله المعروف بالحاكم ت٤٠٥هـ مطابع النصر الحديثة- الرياض- المملكة العربية السعودية.

٤٢- تهذيب التهذيب: للإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى- مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية- الهند(مصورة بدار صادر- بيروت).

٤٣- كتاب(قيام الليل) للإمام محمد بن نصر المروزى، ص٥٧، طبع لاهور، عام ١٣٢٠هـ.

٤٤- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب: للإمام أبى عمر يوسف بن عبد الله محمد بن عبد البر، تحقيق على محمد البجاوى، مطبعة نهضة مصر القاهرة.

٤٥- كتاب الأسماء والصفات: للإمام الحافظ أبى أحمد بن الحسين بن على البيهقى ت ٤٥٨هـ. تحقيق الشيخ عماد الدين أحمد حيدر، دار الكتاب العربى، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥هـ. ١٩٨٥م.

٤٦- المصنف، للصفانى - تحقيق المحدث حبيب الرحمن الأعظمى دار صادر - بيروت.

٤٧- حياة الصحابة: للشيخ محمد يوسف الكاندهلوى، طبع دمشق.

٤٨- معالم فى الطريق: سيد قطب، مكتبة وهبة، سنة ١٣٨٤هـ.

٤٩- الموطأ: للإمام أبى عبد الله مالك بن أنس الأصبحى تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى مطبعة الشعب القاهرة.

٥٠- الخيرات الحسان فى مناقب أبى حنيفة النعمان - للشيخ أحمد بن حجر الهيثمى المكى - طبع لاهور.

٥١- فى ظلال القرآن: سيد قطب، دار صادر بيروت.

الباب الثانى

الطريق إلى تحقيق القرآن فى حياتنا

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾[١].

والصلاة والسلام على خير خلق الله وأفضل من قرأ كتاب الله وتدبر معانيه، وعمل بأحكام سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه ومن تمسك بسنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد..

فقد أكرم الله عز وجل هذه الأمة بالقرآن الذى فيه نبأ ما قبلها وخبر ما بعدها، وحكم ما بينها، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، هو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثره الرد، لا تنقضى عجائبه، لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾[٢] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم..

وقد جمع الله عز وجل فى هذا القرآن المواعظ والأمثال، والآداب والأحكام، وما يحتاج إليه الناس من أخبار الأولين والآخرين، وأمر بالاعتناء به وملازمة آدابه، والعمل بأحكامه.

فضيلة تلاوة القرآن وحملته:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[٣].

قال مطرف بن عبد الله بن الشخير[٤]: (هذه آية القراء) وهذا على أن ﴿يتلون﴾ بمعنى: يقرءون، وإن جعلنا بمعنى: يتبعون، صح معنى الآية، وكانت فى القراء وغيرهم ممن اتصف بأوصاف الآية، وكتاب الله، هو القرآن[٥]

وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[٦] وعن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة»[٧] والذى يقرأ وهو يتتعتع[٨] فيه وهو عليه شاق له أجران[٩] وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «أن الله تعالى يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين» رواه مسلم[١٠] وعن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه[١١] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه» رواه مسلم[١٢] والأحاديث فى هذا كثيرة ولا يسع المقام لذكرها وفى هذا ما يكفى لمن يريد أن يعلم ما ورد فى فضل تلاوة القرآن وحملته[١٣].

تدبر القرآن الكريم:

إن من أهم الأمور التى تتصل بالقرآن الكريم، تيسير الأسباب الموصلة إلى تدبر آياته، وهذه مهمة أهل العلم أن يكشفوا عن معانى آيات القرآن وتعليمها للناس.

إن هذا القرآن كلام الله جل شأنه: ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[١٤] أنزله الله ليهدى الناس إلى الحق وليبصرهم بطريق الرشاد، وليبث الحياة والسعادة والأمن فى القلوب والأفراد والمجتمعات.

وهو نذير وبشير، وينذر كل من بلغه، ويبشر من آمن به وعمل بمقتضاه فمن آمن به وعمل به اهتدى ونجا، ومن كفر به وأعرض عنه ضل وكان من الهالكين[١٥].

قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾[١٦].

وهذا النداء ﴿**فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى**﴾ نداء مستمر إلى يوم القيامة،

لأن رسالة محمد ﷺ هى خاتمة الرسالات، وهو خاتم الأنبياء، وقد أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن من لدن بعثته ﷺ إلى قيام الساعة.

وأُمر ﷺ أن يقول للناس بأن هذا القرآن أوحى إليه لينذر الناس كما قال تعالى ﴿ **قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ** ﴾[17].

والإنذار يجب أن يفهم حتى يتحقق الغرض من توجيهه، وإلا فإن الإنسان الذى لم يفهم الإنذار ولم يحاول أن يستعين بأحد لفهمه لا ينتفع من اغتنام الفرصة.

إنه لابد من فهم الإنذار وتدبره واستيعابه.. إن هذا القرآن ينذر كل من يكفر به، وينذره بالنار قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾[18].

إن فهم القرآن وتدبره هو الخطوة الأولى لوعى الإنذار، وفعل المأمور، واجتناب المحظور، ومن هنا كان الأمر بالتدبر فى عدد من آيات كتاب الله تعالى: فقال جل شأنه:

﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا** ﴾[19]

قال الزجاج[20] (التدبر) النظر فى عاقبة الشئ، (والدبر) النحل، سمى دبراً: لأنه يعقب ما ينتفع به و(الدبر) المال الكثير، سمى دبراً لكثرته، لأنه يبقى للأعقاب، والأدبار[21].

وقال ابن عباس: أفلا يتدبرون القرآن فيتفكرون فيه، فيرون تصديق بعضه لبعض، وأن أحداً من الخلائق لا يقدر عليه، قال ابن قتيبة: والقرآن من قولك: ما قرأت الناقة سلى [22] قط، أى: ما ضمت فى رحمها ولداً، وأنشد أبو عبيدة:

هجان اللون لم تقرأ جنيناً [23]

قوله تعالى: ﴿ **لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** ﴾ فيه ثلاثة أقوال.

أحدهما: أنه التناقض، قاله ابن عباس، وابن زيد، والجمهور، والثانى: الكذب، قاله مقاتل والزجاج، والثالث: أنه اختلاف تفاوت من جهة بليغ من الكلام، ومرذول، إذ لابد للكلام إذا طال من مرذول، وليس فى القرآن إلا بليغ، ذكره الماردى فى جماعة(٢٤).

قال ابن جرير: يعنى جل ثناؤه بقوله: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن**﴾(٢٥) أفلا يتدبر المبيتون غير الذى نقول لهم يا محمد كتاب الله، فيعلموا حجة الله عليهم فى طاعتك، واتباع أمرك وأن الذى أتيتهم من التنزيل من عند ربهم لاتساق معانيه، وائتلاف أحكامه وتأييد بعضه بعضاً بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق، فإن ذلك لو كان من عند الله، لاختلفت أحكامه وتناقضت معانيه، وأبان بعضه عن فساد بعض(٢٦).

وقال تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾(٢٧).

ولقد قامت الأدلة النقلية والعقلية على أن هذا القرآن من عند الله، وأنه نور وخير وسبب السعادة والأمن، والفلاح والنجاح، وعلى أن محمدا رسول الله، فهو مكتوب فى التوراة والإنجيل، ودينه الذى جاء به يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحل للناس الطيبات ويحرم عليهم الخبائث وينقذهم ويخلصهم من الأغلال والقيود التى كانت مفروضة عليهم، ويحررهم من مآسى الشرك والظلم والجهل والطغيان...(٢٨).

وهذا أمر ثبت بالنقل، وقامت الأدلة الواقعية ناطقة به، وشهد العقل السليم بعدالة أحكامه وبهذا كان الذى أنزل على محمد ﷺ، نورا يهدى المؤمن إلى الحق ويجعله من المفلحين.

قال تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ**

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٢٩].

هذه الآيات الكريمة تقرر سعة رحمة اللـه وأن هذه الرحمة يكتبها للذين يتصفون بالتقوى وإيتاء الزكـاة والإيمان بآيات الله واتباع الرسول محمد ﷺ، النبى الأمى، هذا الرسـول الذى بشـرت به التوراة والإنجـيل كمـا دلت على ذلك آيات كثـيرة من كتـاب الله، وكما جاء فى حـديث عبد الله بن عـمرو الذى أخرجـه البخارى وغـيره، يقول عـبد الله بن عـمرو:(أجل والله، إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفـته فى القرآن، يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشـراً ونذيراً ورمز للأميين أنت عبـدى ورسولى، سميـتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسـواق ولا يدفع بالسيئة، ولن يقـبضه الله حتى يقيم به الملـة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح اللـه بها أعيناً عميا، وأذاناً صما، وقلوباً غلفا[٣٠]. .

تتضمن هذه الآيات الأمر بالإيمان بالله ورسوله، كما تتضمن مقتضى هذا الإيمان وهو اتباعه ﷺ فيما أمر يأمر به ويشرعه واتباعه كذلك فى سنته وعمله، وليس هناك رجاء فى هداية الناس فيما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ، إلا باتباعه فيـما يدعو اليـه فيه ولا يكفى أن يؤمن به بقلوبهم ما لم يتبـع الإيمان العملى الكامل لرسول الله ﷺ، فيما يبلغ عن ربه وفيما يشرعه ويسنه.

كمـا تتضمن بيان سلطة النبى ﷺ الـتشريعيـة التى منحها الله سبـحانه وتعالـى رسوله ﷺ، حيـث قال:﴿ **يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث** ﴾ فالتحليل والتحريم هنا أسنده الله إلى رسوله من عمل رسول الله ﷺ، ليس إلا مع أنه لا فرق بين ما حرمه الله سبحـانه وتعالى وحلله وما حرمه رسول الله ﷺ وحلله، كلاهما واجب الطاعة والامتثال بدرجة واحدة[٣١].

ولذلك قال الله جل وعلا: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾(٣٢).

ثم قررت الآيات عموم رسالة محمد ﷺ ودعوة الناس إلى اتباعه ليهتدوا.

إن هذه الدعوة تنادى الناس بجميع أقوامهم وأجناسهم، وعلى كل مستوياتهم أن يؤمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزل معه، ولن يكون هذا متحققاً مالم يقم العلماء بتباين آيات هذا الكتاب وشرحها باللغة والأسلوب الذى يفهمه كل قوم وبالمستوى الذى يناسبهم(٣٣).

إذن فالعلماء هم المطالبون بأن يقوموا بهذه المهمة ذلك لأن العلماء ورثة الأنبياء وإنما ورثوا عنهم العلم، فلابد من قيامهم بهذا الواجب حتى ينقذوا أنفسهم من المسئولية يوم القيامة، وحتى لا يكونوا ممن كتم العلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(٣٤).

تلاوة القرآن وحفظه:

من الأمور المهمة التى تعين على فهم القرآن الكريم، أن يكون المسلم على اتصال دائم بالقرآن، يقرؤه أثناء الليل وأطراف النهار، وفى الصلاة وفى غيرها.

فإن هذا القرآن لا تنقضى عجائبه، ولا تبلى جدته، ومن الأمور المجربة أن المرء يكون قد تلا الأية أكثر من مائة مرة، ويتلوها من جديد فيتبين له معنى ما كان قد وقف عليه. وتلاوة القرآن بترتيل وتدبر بصورة دائمة توقف المسلم على كنوز لا حصر لها.

فقد ينقدح فى نفس القارئ مرة من المعانى فى تفسير آية مالم يكن خطر على باله من قبل وربما يكون المعنى الذى وفق إليه لم ينتبه له أحد من قبل.

وقد يسأل سائل فيقول كيف السبيل إلى إدراك معانى القرآن؟

فنقول: إن السبيل إلى ذلك يتلخص فى النقاط التالية:

أولاً: الإيمان والعمل الصالح:

إن هذا القرآن لا يفتح خزائن كنوزه وجواهره ودرره إلا لمن آمن بالله رب العالمين، وآمن باليوم الآخر والرسل والملائكة، وعمل بمقتضى هذا الكتاب، وحرص على أن تكون حياته ترجمة حية للقرآن، ولذلك فإن الاتصال الدائم بالقرآن تلاوة ودراسة وحفظاً وترتيلاً من الأمور التى يجب أن يتصف بها المسلم[٣٥].

وهذا معنى فى غاية الأهمية بالنسبة لمن يريد أن يفهم القرآن الكريم فهماً صحياً وقد ذكر الله تعالى أن القرآن هدى وشفاء للمؤمنين، وأنه عمى على الكافرين، فقال جل ذكره: ﴿**وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ**﴾[٣٦].

ويقول الأستاذ سيد قطب فى بيان معانى هذه الآيات: - (إن هذا الكتاب هدى للمؤمنين وشفاء، فقلوب المؤمنين هى التى تدرك طبيعته وحقيقته، فتهتدى به وتشتفى، فأما الذين لا يؤمنون فقلوبهم مطموسة، لاتخالطها بشاشة هذا الكتاب، فهو وقر فى آذانهم، وعمى فى قلوبهم، وهم لا يتبينون شيئاً لأنهم بعيدون جداً عن طبيعة هذا الكتاب وهواتفه ﴿**قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهم عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد**﴾ ويجد الإنسان مصداق هذا القول فى كل زمان وفى كل بيئة.

فناس يفعل بهم هذا القرآن فى نفوسهم فينشئها إنشاء، ويحييها إحياء، ويصنع بها ومنها العظائم فى ذاتها وفيما حولها.

وناس يثقل هذا القرآن على آذانهم وعلى قلوبهم، ولا يزيدها الا صمماً وعمى، وما تغير القرآن، ولكن تغيرت القلوب وصدق الله العظيم[٣٧].
وقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[٣٨].

فالهدى حقيقة هذا الكتاب، والهدى طبيعته، والهدى كيانه، والهدى ماهيته، ولكن لمن؟ لمن يكون ذلك الكتاب هدى ونوراً ودليلاً ناصحاً مبيناً؟.. للمتقين.

فالتقوى فى القلب هى التى تؤهله للانتفاع بهذا الكتاب، هى التى تفتح مقاليف القلب له، فيدخل ويؤدى دوره هناك، هى التى تهئ لهذا القلب أن يلتقط وأن يتلقى وأن يستجيب[٣٩] ويقول الله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[٤٠].

أجل فى القرآن شفاء، وفى القرآن رحمة لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان فأشرقت وتفتحت لتلقى ما فى القرآن من روح وطمأنينة وأمان[٤١] أما الظالمون فلا يزيدهم هذا القرآن الا خسارا.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن تقوى الله والعمل الصالح من أهم ما يعين المسلم على فهم كلام الله تعالى، اقتداء برسول الله الكريم ﷺ الذى كان خلقه القرآن كما وصفته بذلك أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها.

ثانياً: الإخلاص:

إن من الأمور المهمة التى تعين المسلم على إدراك معانى القرآن الكريم أن يخلص نيته فى فهمه، وطلبه العلم الذى يبلغه تفسيره وتدبره.

يقول القرطبى رحمة الله تعالى فى مقدمة تفسيره: إن على طالب العلم أن يحصل عدداً من العلوم حتى يقوى على فهم القرآن وأوضح أهمية هذه العلوم بالنسبة إليه، وذكر من جملة تلك العلوم العربية، والسنة، وعلوم القرآن، والفقه. وما إلى ذلك.

ثم لفت الأنظار إلى أن هذه العلوم لا تكفى إن لم يكن الإخلاص محققاً عنده ودافعاً له ومحركاً إياه فقال[٤٢]: (ولا ينتفع بشئ مما ذكرنا حتى يخلص النية فيه لله جل ذكره عند طلبه أو بعد طلبه كما تقدم.

فقد يبتدئ الطالب للعلم يريد به المباهاة والشرق فى الدنيا، فلا يزال به فهم العلم حتى يتبين أنه على خطأ فى اعتقاده فيتوب من ذلك، ويخلص النية لله تعالى فينتفع بذلك ويحسن حاله. قال الحسن: كنا نطلب العلم للدنيا، فجرنا الى الآخرة. وقاله سفيان الثورى. والإخلاص هذا أمر فى غاية الأهمية لمن يريد أن يدرك معانى كلام الله تعالى.

فوائد الاخلاص: وللإخلاص فائدتان: عامة وخاصة أما الخاصة فإن الإخلاص يفتح مجالات للمؤمن لا تحصى ولاتعد، ولا يحاط بها، إذ يقذف فى قلب المسلم نوراً وبصيرة، ويمنه قدرة على الفهم والتأويل والتذوق والفكر السديد، ويكسبه الأجر الجزيل، لأن الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى)[٤٣].

وأما فوائد الإخلاص العامة فإن الإخلاص فى العمل يهب له القبول عند الناس، ويجعلهم ينتفعون منه ويتأثرون به أعظم التأثر، وهذا أمر مشاهد ملموس، فالواعظ والمفسر والمؤلف عندما يقوم بعمله بإخلاص وصدق يعظم التأثر به ويكثر المقبلون عليه[٤٤].

جوانبه، أصلح الله برانيه، ومن فسد جوانبه، أفسد الله برانيه[٤٥].

وقال مالك بن دينار: اتخذ طاعة الله تجارة، تأتك الأرباح من غير بضاعة[٤٦].

وقال محمد بن عبد الله بن زنجى البغدادى:

وإذا أعلنت أمراً حسناً * فليكن أحسن منه ما تيسر

فمسر الخير موسوم به * ومسر الشر موسوم بشر[٤٧].

ثالثاً: القلب السليم:

لابد لمن يريد أن يجد الهدى فى القرآن أن يجئ إليه بقلب سليم خالص، ثم أن يجئ إليه بقلب يخشى ويتوقى، ويحذر أن يكون على ضلالة أو تستهويه ضلالة وعندئذ يتفتح القرآن عن أسراره وأنواره ويسكبها فى هذا القلب الذى جاء إليه متقياً خائفاً حساساً مهيئاً للتلقى(٤٨).

يقول جل ذكره: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾(٤٩).

لقد جعل الله بين هؤلاء الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة وبين محمد ﷺ وهو يقرأ القرآن حجاباً خفياً، وجعل على قلوبهم أكنة - أى أغطية - فلا تفقه القرآن، وجعل فى آذانهم ثقلاً فلا تسمع الحق ولا تعيه.

إنهم لا ينتفعون بالقرآن، ولا يهتدون به، بل يولون على أدبارهم نفورا(٥٠).

رابعاً: التحلى بأخلاق القرآن:

إن التحلى بأخلاق القرآن من الرفق والأدب والتواضع والبعد عن التكبر والعجب ومصاحبة الأخيار، ومجالسة الأبرار، والبعد عن الشبهات، وبعبارة موجزة:

الالتزام بما شرع الله فى هذا الكتاب الكريم. إن ذلك كله ليضفى على النفس الطمأنينة ويهيئ لها الجو الروحى اللازم لفهم كتاب الله وإدراك معانيه(٥١).

خامساً: صفات مهمة يجب أن يتحلى بها المسلم:

ينبغى لمن يريد أن ينتفع بالقرآن الكريم، ويحققه فى حياته، ويسعد بالعيش فى ظلاله، أن يكون لله حامد، ولنعمه شاكر، وله ذاكراً، وعليه متوكلاً، وبه مستعيناً، واليه راغباً، وله معتصماً، وللموت ذاكراً وله مستعداً.

ينبغى للمسلم أن يكون خائفاً من ذنبـه، راجياً عفو ربه، ويكون الخوف فى صحتـه أغلب عليه، إذ لا يعلم بما يختم له، ويكون الرجـاء عند حضور أجله أقـوى فى نفـسه لحـسن الظن بالله، قـال رسـول الله ﷺ :«لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»(٥٢) أى أنه يرحمه ويغفر له.

كما ينبغى للمـسلم أن يكون ممن يؤمن شره، ويرجى خيره، ويسلم من ضره، وألا يسمع ممن نم عنده، يصاحب من يـعاونه على الخير، ويدله على الصدق ومكارم الأخلاق ويزينه ولا يشينه(٥٣).

تدبر الصحابة للقرآن:-

كان السلف الصالح يقرؤن القرآن لا بقصـد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد التذوق والمتاع، وإنما كانوا يقرؤنه للعمل به والاقتداء بالرسول الكريم ﷺ(٥٤) فلم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليـستكثر به من زاد الثقافة لمجـرد الثقافة، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العملية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته، إنما كان يتلقى القرآن ليـتلقى أمر الله فى خاصة شأنه وشأن الجـماعة التى يعيش فيها، وشأن الحياة التى يحياها هو وجماعته. يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه كما يتلقى الجندى فى الميدان (الأمر اليومى) ليعمل به فور تلقيه.

ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه فى الجلسة الواحدة، لأنه يحس إنما يستكثر من واجـبات وتكاليف يجعلها على عاتقه، فكان يكتـفى بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء فى حديث ابن مسعود(٥٥).

ولقد دفع السلف مـن الصحابة ومن تبـعهم إلى هذا الاتجاه نحـو القرآن آيات فى كتاب الله الكريم، منهـا قول الحق جل شأنه: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ** ﴾(٥٦).

وهذا التدبر خطوة للعمل به قال تعالى: ﴿ **فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ** ﴾(٥٧) ولقـد جرى سلفنا الصالح على هذا السنن، ففهموا هذا الكتاب الكريم، ودرسوه وعملوا

به، بل كانوا لا يجاوزون آية إلى أخرى حتى يعملوا بما فيها، فتعلموا العلم والعمل جميعاً (٥٨).

عن ابن مسعود قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن. وعن أبى عبد الرحمن السلمى قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبى ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً. (٥٩).

ومن هنا نستطيع أن ندرك مدلول الخبر الذى نقل عن واحد من الصحابة وهو عبد الله بن عمر أنه حفظ سورة البقرة فى ثمانى سنوات(٦٠).

إن الشخص العادى فى الحفظ يستطيع أن يحفظ هذه السورة فى ثلاثة أشهر بكل يسر وسهولة. وليس بقاء ابن عمر تلك المدة قصوراً فى قدرته على الحفظ، ولكنه كان يسلك منهج الصحابة فى التعامل مع القرآن ودراسته. المنهج الذى يقرن الحفظ بالعمل والتطبيق.

إذن طريقة الصحابة هذه هى الطريقة المثلى فى حفظ القرآن ودراسته، وهذا المعنى انتبه إليه من المؤلفين المعاصرين الأستاذ سيد قطب رحمه الله عندما قرر أن المسلمين فى الأزمان المتأخرة انحرفوا فى دراسة القرآن، وذلك عندما صاروا يدرسونه على أنه كتاب ثقافة ولم يدرسوه على أنه أوامر للتنفيذ. وقد بسط هذه الفكرة فى مواضع من كتابيه (معالم فى الطريق) (وفى ظلال القرآن)(٦١).

وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جل فى أعيننا. وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين، قيل: ثمانى سنوات، ذكره مالك(٦٢).

والتدبر لما يقرأ أمر طبيعى فى كل كتاب يريد قارئه الانتفاع منه، فإذا قرأ الإنسان كتاباً فى الطب أو فى الحساب. ما فائدة قرآته إذا لم يفهمه وإذا لم يطلب شرحاً لما عسر فهمه عليه فى هذا الكتاب؟.

إن قراءة شئ وعدم محاولة فهمه أمر غير طبيعى فى حياة الناس العادية، فما القول إذا كان هذا الكتاب من الله رب العالمين، أنزله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وليحقق لهم السعادة فى الدنيا والآخرة.

قال ابن تيمية[٦٣]: (وذلك أن الله تعالى قال: ﴿**وكتاب أنزلناه مبارك ليدبروا آياته**﴾[٦٤] وقال ﴿**أفلا يتدبرون القرآن**﴾[٦٥] وقال: ﴿**أفلا يدبروا القول**﴾[٦٦] وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وكذلك قال تعالى: ﴿**إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون**﴾[٦٧] وعقل الكلام الكلام متضمن لفهمه.

ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود فهم معانيه دون مجرد ألفاظه فالقرآن أولى بذلك، وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً فى فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه. فكيف بكلام الله تعالى الذى هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم).

ومما يستحق أن ننبه عليه هنا هو أن المسلمين تركوا منهج الصحابة فى قرن العلم بالعمل بل أصبح من يدرس القرآن منهم يدرسه على أنه كتاب ثقافة فيه الفقه والنحو والكلام وما إلى ذلك، وما كل الناس مستعدون لدراسة هذه العلوم ولم يطلب من الناس كلهم ذلك بينما نزل القرآن للعمل، ومطلوب من الناس كلهم أن يعملوا به. وساعد على ترك التدبر أمران:

أولهما: اشتغال الجم الغفير من الناس بالاستكثار من تلاوته عن التدبر لأن هذا القرآن كما ورد فى أحاديث صحيحه عدة يتعبد بتلاوته، وقد ورد أن لقارئه بكل حرف حسنة والحسنة بعشرة أمثالها.[٦٨] وهذا لا يمنع التدبر بل العبادة تزداد حسناً وكمالاً إذا جمع العابد إليها تدبر ما يردد من الفاظ فيها.

والأمر الثانى: فساد سليقة المولدين، وعجمة كثير من الذين دخلوا الإسلام، فهؤلاء وأولئك لا يفهمون معنى القرآن الذى يقرؤون وهم يريدون الحصول على الثواب فى قراءة القرآن، من أجل ذلك غاب هذا التدبر إلا قليلاً فى واقع سواد المسلمين فى قراءتهم للقرآن، وعلاج هذا الواقع هو أن

تعود إلى المنهج السليم فى التعامل مع هذا الكتاب الكريم.

والعجيب فى أمر هـذا التدبر أن القرآن الكريم ميسر ليفـهمه الناس على مخـتلف مستويـاتهم، إنه يفتح خزائنه لكل من يقـبل عليه فيـأخذ كل منهم بحسب مستواه وقدرته.

فـالبـدوى والعـالم النحـرير يفـهـم كل منهـمـا على حـسب طاقـتـه وإمكاناته[٦٩].

إن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يقبل عليـه بهذه الروح. روح المعرفة المنشئة للعمل. إنه لم يجئ ليكون كتـاب متاع عقلى، ولا كتاب أدب وفن، ولا كتاب قصة وتاريخ.

وان كان هذا كله من محتوياته، إنما جاء ليكون منهج حياة منهاجاً إلاهيّاً خالصاً. وكان الله سبحانه يأخذهم بهذا المنهج مفرقاً يتلو بعضه بعضا[٧٠].

أشار الإمام ابن كثير إلى أمر واقعى مهم، وهو أن المسلمين لا يستطيعون جميعاً أن يتدبروا هذا القرآن بأنفسهم، لقلة علم أكثرهم، ولجهل منهم باللغة العربية لكونهم من غير العرب الذين لا يعرفـون إلا لغتهم، فموضوع التدبر لهذا الكتاب الذى فـيه التبشـير والإنذار لا يتحقق إلا بمساعـدة العلماء الذين أخـذ عليهـم العهـد أن يبلغـوا دين الله، وإلا كـانوا من الكاتمين الملعـونين فقال: (فـالواجب على العلماء الكشف عن معانى كلام الله، وتفـسير ذلك، وطلبه من مظانه وتعلم ذلك وتعليمه كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[٧١] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٧٢].

قدم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعـراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم وإقبالهم على الدنيا وجمعها واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا أيها المسلمون أن ننتهى عما ذمهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه وتفهيمه. قال الله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[٧٣].

ففى ذكره تعالى لهذه الآية بعد التى قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيى الأرض بعد موتها كذلك يلين القلوب بالإيمان والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصى، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا هذا إنه جواد كريم[٧٤].

وهو بهذا الكلام يشير إلى أمر فى غاية الأهمية، وهو واجب العلماء بالنسبة لإتاحة التدبر لأكبر عدد من المسلمين. وقد ذكر أن واجب العلماء مزدوج ذو شقين:-

أما أولهما: فهو استكمال مصادر البحث ودراسة المراجع المتعلقة بالقرآن، وقد عبر عنها بالتعلم والتفهم.

وأما الشق الثانى: فهو بيانه للناس بأسلوب جميل، وقد عبر عن ذلك بالتعليم والتفهيم[٧٥].

وختاماً: اسأل الله تعالى أن ينفعنا بالقرآن فى الدنيا والآخرة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على عبده ورسوله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الحواشي والهوامش

١- سورة الكهف الآيات : ١، ٢، ٣.

٢- سورة الجن الآيات : ١، ٢.

٣- سورة فاطر الآيات : ٢٩، ٣٠.

٤- مطرف بن عبد الله بن الشخير الحرشى العامرى، أبو عبد الله، زاهد من كبار التابعين - له كلمات فى الحكمة مأثورة وأخبار. ثقة فيما رواه الحديث - ولد فى حياة النبى ﷺ. ثم كانت إقامته ووفاته فى البصرة - انظر: حلية الأولياء (٢/ ١٩٨) والأعلام (٨/ ١٥٤).

٥- تفسير ابن عطية المحرر الوجيز (ج١٢ ص٢٤٤) ط١، سنة ١٤٠٧م الدوحة - قطر.

٦- رواه البخارى (٩/ ٦٦، ٦٧) وأبو داود رقم(١٤٥٢) والترمذى رقم(٢٩٠٩ ، ٢٩١٠) وابن ماجه رقم (٢١١).

٧- السفرة: الملائكة الكتبة، والبررة: جمع بار، وهو المطيع.

٨- يتتعتع: أى يشتد ويشق.

٩- رواه البخارى (٨/ ٥٣٢) فى تفسيره سورة عبس، ومسلم رقم (٧٩٨) فى صلاة المسافرين، وأبو داود رقم (١٤٥٤)، والترمذى رقم (٢٩٠٦).

١٠- رواه مسلم رقم (٨١٧) فى صلاة المسافرين باب فضل من يقوم بالقرآن وتعليمه.

١١- هو صدى بن عجلان بن وهب الباهلى، أبو أمامة: صحابى، كان مع علىٍّ فى (صفين) وسكن الشام، فتوفى فى أرض حمص وهو آخر من مات من الصحابة بالشام، له فى الصحيحين ٢٥٠ حديثاً. انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب (٤/ ٤٢٠) والإصابة (ت ٤٠٥٤) وابن عساكر (٦/ ٤١٧).

١٢- رواه مسلم رقم (٨٠٤) فى صلاة المسافرين باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة.

١٣- انظر: التبيان فى آداب حملة القرآن (ص١١) فما بعدها، الإمام النووى، ط١ - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٤- سورة فصلت الآية: ٤٢.

١٥- انظر: الدكتور محمد بن لطفى الصباغ بحوث أصول التفسير (ص٤٢)، ط المكتب الإسلامى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٦- سورة الأعراف الآية: ١٥٨.

١٧- سورة الأنعام الآية: ١٩.

١٨- سورة هود عليه السلام الآية: ١٩.

١٩ سورة النساء الآية: ٨٢.

٢٠- الزجاج: إبراهيم بن السرى بن سهل أبو إسحاق الزجاج: عالم بالنحو واللغة. ولد ومات فى بغداد. من كتبه معانى القرآن(خ) والاشتقاق، انظر: معجم الآدباء (١/ ٤٧) وتاريخ بغداد (٦/ ٨٩) والأعلام (١/ ٣٣).

٢١- انظر: ابن الجوزى فى زاد المسير (جـ٢ ص١٤٤)، المكتب الإسلامى ط٤ - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٢٢- فى (اللسان) السلى: لفافة الولد من الدواب والإبل، وهو من الناس المشيمة.

٢٣- صدر البيت: ذاعى عيطل أدماء بكر. والبيت لعمرو بن كلثوم من معلقته المشهورة. وقد انفرد أبو عبيدة بهذه الرواية، انظر شرح القصائد السبع الجاهليات: ٣٨٠ وهو فى مجاز القرآن (١/ ٢) وغريب القرآن (٢٣) الجمهور (١/ ٢٢٩) واللسان والتاج مادة قرأ.

٢٤- زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى (ج٢ ص١٤٤، ١٤٥).

٢٥- سورة محمد عليه الصلاة والسلام: الآية ٢٤.

٢٦- تفسير ابن جرير الطبرى (ج٨ ص٥٦٧)، محمد بن جرير الطبرى، تحقيق محمود شاكر، دار المعارف سنة ١٩٦٩م.

٢٧- سورة ص الآية: ٢٩.

٢٨- انظر: بحوث فى أصول التفسير (ص٤٤).

٢٩- سورة الأعراف الآية: ١٥٦ - ١٥٨.

٣٠- فتح البارى (جـ٤ ص٣٤٢ - ٣٤٣)، ابن حجر العسقلانى، المطبعة السلفية سنة ١٩٣٨٠هـ.

٣١- دراسات فى الحديث النبوى وتاريخ تدوينه، د. محمد مصطفى الأعظمى (ص١٤)، المكتب الإسلامى سنة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٣٢- سورة الحشر الآية: ٧.

٣٣- بحوث فى أصول التفسير (ص٤٥).

٣٤- سورة البقرة الآية: ١٥٩، ١٦٠.

٣٥- بحوث فى أصول التفسير (ص٣١).

٣٦- سورة فصلت الآية: ٤١، ٤٤.

٣٧- فى ظلال القرآن (٢٤/ ١٣٩) سيد قطب.

٣٨- سورة البقرة الآية: ١، ٢.

٣٩- فى ظلال القرآن (١/ ٣٨، ٣٩).

٤٠- سورة الإسراء الآية: ٨٢.

٤١- فى ظلال القرآن (١٥/ ٦٣).

٤٢- تفسير القرطبى (١/ ٢٢) الجامع لأحكام القرآن - محمد بن أحمد القرطبى، دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٥م.

٤٣- أخرجه البخارى (١/ ٧)، مسلم(١٩٠٧)، وأخرجه أبو داود(١ ٢٢٠) والترمذى(١٦٤٧) والنسائى فى سننه (١/ ٥٩)، وهو فى البخارى أيضاً

(١/١٢٦، ٥/١١٧، ٧/١٧٧، ٩/١٠٠).

٤٤- بحوث فى أصول التفسير (ص٣٦).

٤٥- روضة العقلاء (ص١٤)، ابن حيان. مطبعة الحلبى، الطبعة الأولى سنة ١٩٥٥ بمصر.

٤٦- المصدر السابق (ص١٤).

٤٧- المصدر السابق (ص١٥).

٤٨- فى ظلال القرآن (جـ١ ص٣٨، ٣٩).

٤٩- سورة الإسراء الآية: ٤٥، ٤٦.

٥٠- فتح القدير، محمد على الشوكانى (ج٣ ص٤٣١) دار الفكر سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٥١- بحوث فى أصول التفسير (ص٣٤).

٥٢- أخرجه مسلم فى صحيحه (ج٨ ص١٦٥) طبعة استانبول، وأحمد فى مسنده (٣/٢٩٣، ٣٢٥، ٣٣٠، ٣٤٥، ٣٩٠) وأبو داود برقم (٣١١٣) وابن ماجه برقم (٤١٦٧) عن جابر رضى الله عنه.

٥٣- تفسير القرطبى (١/٢١).

٥٤- معالم فى الطريق (ص١٧-١٩)، سيد قطب - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٤هـ.

٥٥- ذكره ابن كثير فى مقدمة التفسير (١/٣)، مطبعة عيسى البابى الحلبى، دون تاريخ.

٥٦- سورة ص: الآية: ٢٩.

٥٧- سورة الزمر: الآية: ١٧-١٨.

٥٨- انظر: هذين الحديثين فى مقدمة تفسير الطبرى طبعة شاكر (جـ١ ص٨٠).

٥٩- تفسير ابن كثير (١/ ٣).

٦٠- جاء فى تفسير القرطبى (ج١ ص٣٩، ٤٠): (وفى موطأ مالك أنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلمها) وانظر الموطأ (ج١ ص٢٠٥) طبعة محمد فؤاد عبد الباقى، باب ما جاء فى القرآن.

٦١- بحوث فى أصول التفسير (ص٨٤).

٦٢- مقدمة فى أصول التفسير (ص٣٥، ٣٦)، ابن تيمية تحقيق عدنان زرزور دار العلم بيروت ١٣٩١هـ.

٦٣- المصدر السابق (ص٣٦).

٦٤- سورة ص الآية: ٢٩.

٦٥- سورة النساء الآية: ٢٨، وسورة محمد عليه الصلاة والسلام الآية: ٢٤.

٦٦- سورة المؤمنون الآية: ٦٨.

٦٧- سورة يوسف عليه السلام الآية: ٢.

٦٨- حديث صحيح رواه الترمذى عن ابن مسعود (انظر رياض الصالحين ط. المكتب الإسلامى رقم ١٠٠٦).

٦٩- بحوث فى أصول التفسير (ص٨٦).

٧٠- المصدر السابق (ص٣٥).

٧١- سورة آل عمران الآية: ١٨٧.

٧٢- سورة آل عمران الآية: ٧٧.

٧٣- سورة الحديد الآية: ١٦، ١٧.

٧٤- تفسير ابن كثير (ج١ ص٣).

٧٥- راجع بحوث فى أصول التفسير (ص٦٦).

الفهرس

رقم الايداع ٤٥١٢ / ١٩٩٨
ISBN
977 - 294 -065 - 5

طـــبع آمـــون
٤ عطفة فيروز – متفرع من ش إسماعيل أباظة – لاظوغلى
تليفون: ٣٥٤٤٥١٧ – ٣٥٤٤٣٥٦